

منتدى مكتبة الاسكندرية

باولو مكويلاهو

رواية

الجيل الخامس

ترجمة: ياسر شعبان

.....
باولو كويلهو

الجب الخامس

رواية

ترجمة: ياسر شعبان

ميريت

للتشرو المعلومات

ترجمات

الجيل الخامس

المؤلف: باولو كويلهو

ترجمة: ياسر شعبان

المقاس: ١٣ × ١٩,٥ سم

الطبعة الأولى، ٢٠٠١

© ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: merit56@hotmail.com

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع ٢٠٥١ / ٢٠٠١

للتقديم الدولي 7 - 59 - 5938 - 977

تعليق المؤلف:

فى كتابى (الخيماغى - ساحر الصحراء) كان المضمون الرئيسى يتجلى فى جملة للملك يقولها للراعى (سانتياجو): "عندما تريد شيئا، سيشاركك الكون كله ليساعدك على إنجازك". وأنا أؤمن بهذا من كل قلبى.

وعلى كل تتضمن محاولة المرء ليحيا قدره سلسلة مراحل تتجاوز قدرتنا على الفهم، والتى تهدف دائما إلى إعادتنا إلى الطريق الخاص بأسطورتنا الشخصية ، أو لتجعلنا نتعلم الدروس اللازمة لتحقيق قدرنا.

وأظن أننى أستطيع توضيح ما أقوله بمقارنته بمرحلة فى حياتى. فى ١٢ أغسطس ١٩٧٩ ذهبت للنوم بيلتين وحيد: عند سن الثلاثين نجحت فى تحديد طريقى للوصول بنجاح إلى القمة فى مجال عملى : (مديرا لقسم التسجيل). فقد كنت أعمل كمخرج فى لمحطة CBS فى البرازيل، وكنت قد دعييت إلى الولايات المتحدة للتحدث إلى أصحاب هذه الشركة الذين سيوافقون على توفير كل الصلاحيات اللازمة لإنجاز كل ما رغبت فى تحقيقه بمجال عملى.

وبالطبع نحيت جانبا حلمى الكبير بأن أصبح كاتباً. ولكن ماذا يعنى كل هذا ؟ فرغم كل شئ تظل الحياة الحقيقية جد مختلفة عما تخيلته فلم يكن ثمة وسيلة للتكسب من الأدب فى البرازيل.

وفى هذا المساء قررت أن أتخلى عن حلمى . فعلى
المرء أن يتكيف مع الظروف المحيطة به، ويستغل كل الفوص
والصلاحيات المتاحة.

وإذا اعترض قلبى، أستطيع خداعه بتأليف قصائد
غنائية عندما أُرغب فى ذلك، وكذلك بالكتابة من حين لآخر فى
بعض الصحف والمجلات.

كنت مقتنعا بأن حياتى قد اتخذت طريقا مختلفة، ولكن
كان من المثير أن ينتظرنى مستقبل باهر فى عالم الموسيقى
متعددة الجنسيات.

وعندما استيقظت ، تلقيت مكالمة تليفونية من رئيسى
فى العمل يخبرنى فيها أنني فصلت، وبلا أية تفسيرات.

ورغم أنني طرقت أبوابا عديدة خلال السنتين
التاليتين، لم أجد وظيفة أخرى. وعندما انتهيت من كتابة الجبل
الخامس ، استدعيت هذه المرحلة وغيرها من الأحداث التى لا
يمكن تجنبها فى حياتى.

وكما ظننت أنني السيد المسيطر فى موقف ما، يحدث
شئ يطيح بى. سألت نفسى : لماذا؟

هل هذا يعنى أنه محكوم على بالاقتراب من خط
النهاية دون أن أصل إليه أبدا؟ وهل الرب قاس لدرجة أنه
يسمح لى بروية النخيل عند خط الاستواء، فقط لأموت من
العطش فى الصحراء؟

واستغرقت وقتا طويلا لأدرك أن الأمر ليس هكذا
تماما، فثمة أشياء تفتح حياتنا لتعيدنا إلى الطريق الحقيقية،
لأسطورتنا الشخصية.

وتظهر أشياء أخرى لنطبق ما تعلمنا، وفى النهاية تأتى أشياء لتعلمنا. فى كتاب (الحج) حاولت أن أوضح أن مثل هذه التعاليم لا داعى لربطها بالألم والمعاناة ، فالنظام واليقظة يكفيان.

ورغم أن مثل هذا الفهم أصبح نعمة كبرى فى حياتى، فإنه لم يجهزنى لأتجاوز لحظات صعبة بعينها، حتى ولو استعنت بكل النظام واليقظة.

ومثال ذلك الحالة التى تذكرتها، لقد كنت مهنيا جادا، وبذلت قصارى جهدى لأخرج أفضل ما بداخلى ، وكانت بداخلى أفكار اعتبرها قيمة حتى الآن. ورغم ذلك وقع المحذور فى اللحظة التى شعرت فيها بذروة الأمن والثقة . واعتقد أننى لست وحيدا فى هذه التجربة.

فالمحذور لا بد قد مرر به كل إنسان على وجه الأرض، ليظل البعض مقيدا ويستسلم آخرون، ونشعر جميعا بأجحة المأساة ترفرف فى وجوهنا.

لماذا؟

للإجابة عن هذا السؤال ، تركت "إيليا" يقودنا عبر أيامه ولياليه فى "أكبار".

مدخل:

فى بداية عام ٨٧٠ ق.م، كانت هناك أمة تعرف باسم (فينيقيا) ويدعوها الإسرائيليون (لبنان)، عاشت حوالى ثلاثة قرون فى سلام. وكان من حق مواطنيها أن يفخروا بإنجازاتهم، فرغم أنهم لم يكونوا أقوىاء سياسيا، فقد نجحوا فى تطوير مهارة التفاوض وجعلوها وسيلتهم الرئيسية للنجاة فى عالم سيطرت عليه الحروب.

وحوالى عام ١٠٠٠ ق.م، حدث تحالف مع الملك سليمان "ملك إسرائيل" مما سمح بتحديث الأساطيل التجارية، وتوسيع مجالات التبادل التجارى. ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف (فينيقيا) عن النمو.

جاء ملاحوها البحار إلى أماكن عديدة بعيدة مثل إسبانيا والمحيط الأطلنطى. وثمة نظريات - غير موثقة حتى الان - بأنهم قد تركوا مخطوطات فى "شمال شرق" وجنوب البرازيل. وحملوا الزجاج، وخشب الأرز، والأسلحة، والحديد، والعاج.

وكان سكان المدن الكبيرة مثل (صيدا - تايبر - بيبلس) معتادين على إجراء الحسابات (الرقمية والفلكية) بالإضافة إلى صناعة النسيج. وطوال مائتى عام أسست نظاما من حروف الكتابة أطلق الإغريق عليه: (حروف الهجاء).

وفى بداية عام ٨٧٠ ق.م اجتمع مجلس الحرب فى مكان قصى يدعى (نينيفا) وقررت مجموعة من القادة الأشوريين إرسال قوات لاحتلال الأمم بامتداد شاطئ المتوسط. واختيرت (فينيقيا) كأول دولة يجب احتلالها. وفى بداية عام ٨٧٠ ق.م كان ثمة رجلان مختبئان فى إسطنبول (جلعاد) فى إسرائيل، توقعوا الموت خلال الساعات القليلة التالية.

"وقال الحق أقول لكم إنه ليس نبي مقبولا في وطنه.
وبالحق أقول لكم إن أرامل كثيرة كن في إسرائيل في أيام "إيليا"
حين أغلقت السماء مدة ثلاث سنين وستة أشهر لما كان جوع
عظيم في الأرض كلها. ولم يرسل "إيليا" إلى واحدة منها، إلا
إلى امرأة إلى صرفة صيداء".

"إنجيل لوقا"
الأصحاح الرابع
من آية ٢٤-٢٦

الجزء الأول

قال "إيليا": لقد حفظت الله ، والان خذلى وتركى بين
يدى أعدائى. أجابه "اللاوى": الرب هو الرب ، لم يخبر
موسى عما إذا كان طيباً أو شريراً، ببساطة قال: أنا هو أنا .
إنه كل شئ موجود تحت الشمس، الصاعقة التى تهدم منزلاً،
ويد الإنسان التى تعيد بناءه.

كان الحديث هو السبيل الوحيد لتجنب الشعور
بالخوف، فعند أية لحظة قد يفتح الجنود باب الإسطبل حيث
اختبأ، فيكتشفون وجودهما. وعندها ثمة احتمال وحيد: إما
الاعتراف بالمعبود "بعل" إله الفينيقيين، أو الإعدام.
كانوا يفتشون البيوت بيتاً بيتاً، عن الأنبياء ليتوبوا أو
يعدموهم. وبالنسبة لـ "اللاوى" كان فى مقدوره أن يعلن توبته
وينجو من الإعدام. أما "إيليا" فلا خيار لديه. كل شئ كان
يحدث عبر خطئهِ ، و "إيزابيل" أرادت رأسه تحت كل
الظروف.

(ملاك الرب هو الذى دفعنى للحديث إلى الملك
"اخاب" وتحذيره بأن المطر لن يسقط ما دام "بعل" يعبد فى

إسرائيل) هكذا قال "إيليا" متوسلا الصفح والغفران لأنه انتبه لما أخبره به الملاك. لكن مشيئة الرب كانت بطيئة، فعندما بدأت بوادر القحط، كانت الأميرة "إيزابيل" قد قضت على كل الذين ثبتوا على إخلاصهم لله.

.. لم ينطق "اللاوى" بشئ. كان يفكر هل يتوب إلى
(يعن) أم يموت في سبيل الله؟ من الله؟ - أكمل
"إيليا" - هل هو من يحمل السيف للجندي، السيف
الذى يحم كل الذين لن يخونوا عقيدة آبائنا؟
هل هو من أجلس أميرة أجنبية على عرش بلادنا،
لتكون كل هذه المحن من نصيب جيلنا؟
هل يقتل الرب المؤمنين الأبرياء الذين تبعوا وصايا
موسى؟

كان "اللاوى" قد توصل إلى قراره: فضل الموت.
عندئذ بدأ يضحك لأن فكرة الموت لن ترهبه بعد الآن.
واستدار إلى النبي الصغير جواره وحاول تهدئته، وقال: "سلى
الرب، طالما تشك في قراراته. أما أنا فلقد تقبلت قدرى".
قال "إيليا" بإصرار: مستحيل أن يرضى الله لنا الذبح
بلا رحمة.

قال "اللاوى": للرب كل القوة. فهو إذا فعل فقط كل
ما نراه حسنا، فلن ندعوه بالقدير، وسوف يحكم جزءا من
الكون، وهذا يعنى وجود آخر أقوى منه، يراقب ويقيم أفعاله.
وفى هذه الحالة ساعبد الآخر الأسمى.

قال "إيليا" : إذا كانت له كل القوة، فلماذا لا يوفر
المعانة على الذين يحبونه؟ لماذا لا ينقذهم بدلا من منح
أعدائهم العظمة والفخر؟
قال "اللاوى" : لا علم عندي. لكن الدافع موجود،
وأمل أن نتعلمه قريبا.

قال "إيليا": لا إجابة لديك.

قال "اللاوى" : نعم.

وصمت الرجلان. وشعر "إيليا" بعرق بارد.

قال "اللاوى" : أنت مرعوب. أما أنا فقد تقبلت قدرى.
سوف أخرج لأضع نهاية لهذا الكرب. ففي كل مرة أسمع
صرخة في الخارج، أعاني متصورا كيف سيكون الحال عندما
تحين ساعتى. وطوال اختبارنا مت مائة مرة ، بينما مئة واحدة
لا غير هى ما سأواجه. فإذا كان رأسى سيقطع ، فليكن هذا
سريعا قدر الإمكان.

وكان على حق. فـ "إيليا" سمع نفس الصرخات،
وتحمل من المعاناة أكثر مما يطيق. وقال له : سوف أذهب
معك، فلقد سئمت من القتال لأجل بضعة ساعات من الحياة.
نهض وفتح باب الإسطبل، سامحا للشمس أن تدخل
وتكشف وجود الرجلين المختبئين هناك.

* * *

أمسك "اللاوى" ذراعاه، وسارا.

وبرغم صرخة أو أخرى ، بدأ اليوم طبيعيا بالنسبة
لمدينة مثل غيرها من المدن: الشمس تلوح الجلد العارى،

والنسيم القادم من المحيط البعيد يلطف درجة الحرارة،
والشوارع الترابية والبيوت المبنية من خليط من الطين والقش.
قال "اللاوى" : أرواحنا سجينه الرعب من الموت،
واليوم جميل.

لمرات عديدة من قبل، عندما شعرت بالسكينة مع الله
والعالم، كانت حرارة الجو فظيعة وريح الصحراء ملأت عيني
بالرمل ولم تسمح لى أن أرى لأبعد من يدي، فتدبيره لا يتفق
دائما مع ما نحن عليه أو نشعر به، لكن نيقن من أن لديه سببا
لكل هذا.

قال "إيليا" : يعجبني إيمانك.
نظر "اللاوى" إلى السماء، واستغرق فى التفكير
لبرهة، وعندئذ استدار إلى "إيليا" وقال: لا تتعجب، ولا تتماد
فى تصديقك، فلقد كان الأمر رهانا بينى وبين نفسى . لقد
راهننت أن "الرب موجود".

رد "إيليا" : أنت نبى . فأنت أيضا تسمع أصواتا
وتعرف أن ثمة عالما وراء هذا العالم.
قال "اللاوى" : قد تكون خيالات.

قال "إيليا" بإصرار: لقد رأيت علامات الرب. وبدأ
ينتابه شعور بالإنارة تجاه كلمات رفيقه.
وأعاد "اللاوى" نفس التعليق: قد تكون خيالات .
فواقعا كان الشئ الوحيد الملموس لدى هو رهانى، فلقد قلت
لنفسى كل شئ لابد يأتى من الأعلى.

* * *

كانت الشوارع خاوية . وفى داخل منازلهم كان الناس ينتظرون جند (خاب) ليكملوا المهمة التى كلفتهم بها الأميرة الأجنبية: إعدام أنبياء إسرائيل. مشى "إيليا" محاذيا لـ "اللاوى" وقد سيطر عليه أنه خاف كل باب أو نافذة هناك شخص يراقبه ، ويلومه على ما حدث.
(لم اطلب أن أصبح نبيا، وقد يكون كل شئ ثمرة خيالاتي) هكذا فكر "إيليا".
لكن بعد ما حدث فى دكان النجارة، عرف أنه لم يكن كذلك.

* * *

منذ الطفولة كان يسمع أصواتا ويتحدث مع الملائكة.
كان هذا عندما دفعه والده للسعى إلى راهب إسرائيلى، وبعد أن سأل عدة أسئلة، قال عن "إيليا" إنه: نبى، رسول، رجل الروح الذى يسمو بكلمة الرب.
وبعد الحديث معه لعدة ساعات، أخبر الكاهن أباه وأمه بأنه مهما يكن ما ينطق به الصبى يجب أن يتخذ كأمانة جادة.
وعندما غادرا هذا المكان ، أمره أبوه وأمه ألا يخبر أى مخلوق بما رأى أو سمع، فإن تكون نبيا يعنى علاقات مع الحكومة، وهذا دائما أمر خطير.
على كل - لم يسمع "إيليا" مطلقا أى شئ قد يهم الرهبان أو الملوك . فقط كان يتحدث مع "ملاكه الحارس" ، وكل ما سمعه نصيحة تتعلق بحياته الخاصة ، ومن حين لآخر كانت تتراءى له بعض الرؤى التى لم يستطع فهمها: بحار

بعيدة، جبال تسكنها مخلوقات عجيبة، وعجلات بأجنحة و عيون.

وبمجرد اختفاء هذه الرؤى ، كان يبذل قصارى جهده - مطيعا أباه وأمه - لينساها بأسرع ما يمكن.
ولهذا السبب - أصبحت الأصوات والرؤى أقل تكرارا. وشعر والداه بالسعادة، ولم يتنالا هذا الموضوع مرة ثانية.

وعندما أصبح فى سن تسمح له بالاعتماد على نفسه، أقرضاه بعض المال ليفتح دكان نجارة صغيرا.

• • •

ومن حين لآخر كان يحدق باحترام إلى الأنبياء الذين طافوا الشوارع فى "جلعاد" مرتدين عباءاتهم وأحزماتهم الجلدية المعتادة، قائلين: إن الله قد كلفهم أن يهدوا المختارين من الناس.

بحق - لم يكن هذا مصيره، فلم يكن بمقدوره أبدا أن يستثير النشوة عبر الرقص أو جلد الذات: تلك الممارسة الشائعة بين الذين مجدهم صوت الرب؛ لأنه كان يخاف الألم. ولم يكن فى مقدوره أن يتجول فى شوارع "جلعاد" كاشفا بفخر ندوب الجروح التى تكونت خلال حالة النشوة؛ لأنه كان خجولا جدا. كان "إيليا" يعتبر نفسه رجلا عاديا، يرتدي مثل الباقين الذين يعذبون روحه، ولديه نفس مخاوف وإغواءات الفانين البسطاء.

وباستمراره فى العمل بـدكان النجارة، تلاشت الأصوات كلية. فالناضجون والعمال لا وقت لديهم لمثل هذه الأشياء.

فرح الأب والأم بـابنهما، واستمرت الحياة فى تعاغم وسلام. وأصبحت محادثته مع الكاهن وقت أن كان طفلاً بمثابة ذكرى خافتة.

ولم يستطع "إيليا" أن يصدق أن الله الجبار يجب عليه أن يتحدث مع الرجال لتطاع أوامره. وهكذا أصبح ما حدث فى طفولته مجرد خيالات صبي بلا شئ يفعله .

وفى "جلعاد" ، وطنه، كان كثيرون يعتبرهم الناس مخبولين، هؤلاء لم يكن باستطاعتهم أن يتكلموا بشكل مترابط ومفهوم، أو يميزوا بين صوت الله وضلالات الجنون. كانوا يقضون حياتهم فى الشوارع، يبشرون بنهاية العالم، وكانوا يعيشون على إحسان الآخرين. ورغم ذلك لم يعتبرهم الكهنة من الذين "يمجدهم صوت الرب".

واستنتج "إيليا" فى النهاية أن الكهنة لم يتأكدوا قط مما كانوا يقولونه . فد "تمجيد الرب" كان نتيجة متوقعة لبلد غير متأكد من طريقه، حيث يقاتل الأخ أخاه، وتظهر حكومة جديدة بانتظام.

وهكذا أصبح الأنبياء والمجانين شيئاً واحداً. عندما علم بأمر زواج ملكه من "إيزابيل"، أميرة "تاير"، اعتبر هذا أمراً ضئيل الأهمية. فلقد فعل نفس الشئ

ملوك آخرون من إسرائيل، وكانت النتيجة استمرار السلام فى المنطقة، والأهم من ذلك المتاجرة مع لبنان.

ولم يكن "إيليا" يهتم كثيرا بما إذا كان الناس فى الأقطار المجاورة يؤمنون بالآلهة غير المتعينة أم وهبوا أنفسهم لشعائر عقائد غريبة مثل عبادة الحيوانات والجبال. لكنهم كانوا أمناء فى مفوضاتهم، وهذا هو المهم.

داوم "إيليا" على شراء خشب الأرز الذى يحضرونه، وكذلك على بيع منتجات دكان النجارة. ورغم أنهم كانوا متطرسين نوعا ما، ويحبون أن ينادوا به (الفينيقيين) بسبب لون جلودهم المختلف، لم يحاول أى من التجار اللبنانيين استغلال حالة الارتباك التى شاعت فى إسرائيل. وكانوا ينفعون ثمنا عادلا للبضائع ولا يعلقون على الحروب الأهلية الدائمة أو على المشكلات السياسية التى تواجه الإسرائيليين.

وبعد وصولها إلى العرش، طلبت "إيزابيل" من الملك "أخاب" أن يستبدل عبادة الله عبادة الأرباب اللبنانية.

حتى هذا سبق أن حدث من قبل.

وظل "إيليا" رغم ازدرائه لإذعان "أخاب"، يعبد إله بنى إسرائيل ويتبع وصايا موسى.

وكان يقول لنفسه : سوف ينتهى هذا الحال ، فإذا كانت "إيزابيل" قد أغوت "أخاب" فلن تنجح فى إقناع الناس.

لكن "إيزابيل" لم تكن مثل بقية النساء، كانت تعتقد أن "بعل" قد جاء بها إلى العالم لتهدى الأمم والناس وتحولهم إلى عبادته.

وبمكر وصبر، بدأت تكافئ الذين هجروا عبادة الله
وقبلوا المعتقدات الجديدة. وأمر (أخاب) ببناء معبد لـ (بعل)
فى (سامرة) وبه أقام مذبحا. وتوالت رحلات الحج، وانتشرت
عبادة الآلهة اللبانية فى كل الأنحاء.

واستمر "إيليا" على اعتقاده بأن هذه الحال سوف
تنتهى، قد يستغرق ذلك جيلا. لكنها سوف تنتهى.

عندئذ - حدث شئ لم يكن متوقعا . ذات ظهيرة ،
وأثناء عمله للانتهاء من منضدة فى الدكان: أظلم المكان من
حوله وبدأت آلاف البقع المضيئة تومض أمامه، وللمه رأسه
بشكل لم يجربه من قبل. وحاول أن يجلس لكنه لم يستطع
تحريك عضلة واحدة. لم يكن لخيالاته علاقة بالأمر.

(أنا أموت) ، هكذا ظن للحظة، والآن سوف أكتشف
إلى أين يرسلنا الرب بعد الموت: إلى قلب الجحيم. وبرقت
الأضواء فجأة كما لو كانت تأتي من كل مكان، وجاءته كلمات
الرب قائلة: اذهب وأخبر (أخاب) أنه : (حى هو الرب إليه
إسرائيل الذى وقفت أمامه. إنه لا يكون ظل ولا مطر فى هذه
السنين إلا عند قولى).

فى اللحظة التالية عاد كل شئ طبيعيا، دكان النجارة ،
ضوء الظهيرة ، أصوات الأطفال الذين يلعبون فى الشارع.

* * *

لم يزم "إيليا" تلك الليلة. فلأول مرة منذ سنوات عاودته
أحاسيس طفولته. ولم يكن الحديث لملاكه الحارس؛ وإنما "أشئ
ما" أكبر وأقوى . وخشى أنه إذا فشل فى تنفيذ الأمر قد تبور
تجارته.

وفى الصباح قرر أن يفعل كما طلب منه. فهو مجرد رسول لشيء لا يتعلق به ، وبمجرد انتهاء المهمة ، لن تعود الأصوات لمضايقته.

ولم يكن من الصعب تدبير مقابلة مع الملك (أخاب). فقبل عدة أجيال، وبصعود الملك "صموئيل" إلى العرش، اكتسب الأنبياء أهمية فى التجارة والحكومة. وسمح لهم أن يتزوجوا وينجبوا، لكن يجب عليهم أن يكونوا دائما مطيعين لله، وهكذا لن يضل الحكام عن سواء السبيل.

وحفظت التقاليد بأنه بفضل هؤلاء (الذين مجدهم الرب) تحقق الانتصار فى معارك عديدة، وأن إسرائيل نجت لأنه عندما كان حكامها يحدون عن الطريق القويم ، كانوا يجدون نبيا يعيدهم إلى طريق الله.

عند وصوله إلى القصر، أخبر الملك أن القحط سوف يعم المنطقة حتى تنبذ عبادة الالهة الفينيقيين .

ولم يعر الملك انتباها لكلماته ، لكن (إيزابيل)، التى كانت إلى جوار (أخاب)، أنصت باهتمام إلى كل ما قال "إيليا"، وسألت سلسلة من الأسئلة بشأن الرسالة . وأخبرها "إيليا" عن الرؤية ، وعن الألم فى رأسه، والشعور بأن الزمن قد توقف أثناء إنصاته للملاك.

وأثناء وصفه لما حدث، كان فى استطاعته أن يلاحظ عن قرب الأميرة التى تحدث عنها الجميع، كانت من أجمل السيدات اللاتى شاهدين على الإطلاق، بشعر أسود طويل ينسدل على خصر جسد رائع. وعيناها الخضراوان اللتان برقتا

فى وجهها الداكن ، كانتا مثبتتين على "إيليا" ، وكان غير قادر
على توقع ما توحيان به ، مثلما لم يكن يستطيع معرفة الأثر
الذى سيبته كلماته.

و غادر مقتنعا بأنه أنجز مهمته ، ويستطيع العودة إلى
عمله فى دكان النجارة . فى طريقه رغب فى (إيزابيل) ، بكل
شهوة سنواته الثلاث والعشرين ، وسأل الرب عما إذا كان فى
المستقبل يستطيع أن يجد امرأة من نساء لبنان ، بما يتميز به
من جمال ، بجلدهن الداكن وعيونهن الخضراء الممتلئة بالسحر
والغموض.

* * *

عمل بقية النهار ، ونام فى سلام .
فى الصباح التالى أيقظه "اللاوى" قبل شروق الشمس ،
فلقد نجحت "إيزابيل" فى إقناع الملك بأن الأنبياء يعوقون نمو
وتطور إسرائيل ، فأمر (إخاب) جنوده أن يعدموا كل من
يرفض التخلّى عن الشعائر المقدسة التى فرضها الرب عليهم .
أما "إيليا" - وحده - فلم يكن له حق الاختيار ، كان قتله أمرا
واجبا . ومعظم الأنبياء الذين جابوا الشوارع وعذبوا أنفسهم
وبشروا بنهالة العالم لفساده وندرة الإيمان ، قبلوا التحول إلى
العقيدة الجديدة.

* * *

صوت حاد ، تبعته صرخة اخترقت أفكار "إيليا" ،
فاستدار منزعا إلى رفيقه متسائلا : ماذا كان هذا ؟

لم يكن ثمة إجابة . تهاوى جسد "اللاوى" إلى الأرض
وقد اخترق سهم صدره. وأمامه وقف جندى يضبط سهمًا آخر
فى قوسه.

تطلع "إيليا" حوله : كانت الأبواب والنوافذ بامتداد
الشارع مغلقة بأحكام، والشمس مشرقة على الحقائق، ونسمة
تأتى من المحيط الذى سمع عنه الكثير لكنه لم يره أبدا.
فكر أن يجرى، لكنه كان يعرف أنه سوف يقتنص قبيل
أن يصل إلى الزاوية التالية. فكر بينه وبين نفسه: إذا كان يجب
أن أموت، فلا يجب أن يكون هذا من الخلف. ثائية - رفع
الجندي قوسه، ودهش "إيليا" لأنه لم يشعر بالخوف أو الرغبة
فى النجاة أو بأى شئ آخر. بدا الأمر كما لو كان كل شئ قد
تحدد منذ زمن بعيد، وكلاهما - هو واللاوى - يلعبان أدوارا
فى دراما ليست من كتابتهما.

تذكر طفولته، الصباحات وفترات الظهيرة فى "جلعاد".
العمل غير المنتهى الذى تركه فى دكان التجارة.
فكر فى أمه وأبيه، اللذين لم يرغبوا أن يصبح ابنهما
نبيا، فكر فى عيني (إيزابيل) وابتسامة الملك (أخاب)، وفكر كم
هو غبى ليمت فى الثالثة والعشرين دون أن يجرب حب امرأة.
أطلقت يد الجندي الوتر، فانطلق السهم يصفر فى
الهواء، ويهيم عند عبوره جوار أذنه اليمنى، ليدفن نفسه فى
كومة التراب خلفه.

أعاد الجندي تسليح قوسه وأشهره، ولكن بدلا من
الإطلاق، حنق إلى "إيليا"، وقال: أنا أمهر رام فى كل جيوش
الملك (أخاب)، وطوال سنوات ست لم أخطئ مطلقا فى رمية.

استدار "إيليا" إلى جسد "اللاوى".

قال الجندي: كنت المقصود بهذا السهم، وقوس الجندي ما زال مسلحا ويدها ترتعشان، فـ "إيليا" هو النبي الوحيد الذى يجب أن يقتل ، أما الآخرون فيمكنهم أن يختاروا الإيمان بـ "بعل".

كان دهشا من هدوئه هذا، فلقد تخيل الموت كثيرا خلال الليلالى فى الإسطبل، والان أدرك أنه قد عانى بلا داع، ففى لحظات معدودة سوف ينتهى كل شئ. قال الجندي : لا أستطيع ، ويدها ما زالتا ترتعشان والسهم يغير اتجاهاته فى كل لحظة. ارحل، اخرج من عالمي، لأنه إذا كان الرب قد جعل سهمي ينحرف، فسيلعننى إذا قتلتك.

حينئذ وباكتشافه أن الموت قد يغفل عنه، عاوده الخوف من الموت، فما زالت ثمة إمكانية لرؤية المحيط، العثور على زوجة، إنجاب أطفال، بالإضافة إلى استكمال عمله فى الدكان.

قال "إيليا" : انته من ذلك هنا والان. فى هذه اللحظة أنا هادئ وإذا توانيت فسوف أعانى وفوق ذلك سأعتبر نفسي خاسرا.

نظر الجندي حوله ليتأكد أن أحدا لم يشهد هذا الموقف. عندئذ خفض القوس، ووضع السهم فى كنانته، واختفى عند المنحنى.

شعر "إيليا" بقدومه تضعفان ، وعاوده الرعب بكل وطأته. يجب أن يقر فى الحال، يختفى من "جلعاد"، ولا يجب أن يواجه ثانية جنديا بقوس مشدود وسهم موجه إلى قلبه.

لم يكن قد اختار مصيره، ولا رغب فى رؤية (الخب)
ليتبجح ويخبر جيرانه أنه يستطيع محادثته.
ولم يكن مسئولا عن مذبة الأنبياء، ولا حتى عن
توقف الزمن ذات ظهيرة فى دكان النجارة الذى تحول إلى
فجوة مظلمة ممثلة بالنقاط المضئية ... محاكيا إيماء الجندي
نظر حوله، كان الشارع خاليا تماما.
فكر فى إمكانية انقاذ حياة "اللاوى"، لكن الرعب
عاوده سريعا، وقبل أن يظهر أى شخص آخر، اختفى "إيليا".

مشى ساعات عديدة، سالكا طرقا لم تستخدم منذ زمن بعيد.

وعندما وصل إلى ضفة نهر "كريث" شعر بالخلج من جنبه وبالبهجة لبقائه على قيد الحياة. شرب قليلا من الماء، جلس وعندئذ أدرك الموقف الذى أصبح عليه: من الغد يجب أن يطعم نفسه، ولا أمل فى العثور على طعام فى الصحراء.

تذكر دكان النجارة وسنوات عمره الطويلة ، وأنه مرغم على تركها وراءه . ورغم أن بعض الجيران كانوا أصدقاءه ، فإن يستطيع الاعتماد عليهم. أما قصة فراره ، فيالتأكد قد انتشرت عبر المدينة ، وأصبح الجميع يكرهونه لهروبه هذا، بينما أرسل رجالا إيمانهم حقيقى إلى الاستشهاد.. ومهما كان ما فعله فى الماضى، فهو الآن يستلقى فى القفار ، لأنه اختار أن ينفذ مشيئة الرب.

.. غدا ، وفي الأيام والأسابيع والشهور القادمة،
سيطرق التجار اللبثانيون بابه وسيخبرهم شخص ما أن المالك
قد فر، مخلفا وراءه موت الأنبياء الأبرياء . وربما يضيفون أنه
قد حاول تحطيم الآلهة التي تحمي الجنة والأرض، وسرعان ما
ستعبر القصة حدود إسرائيل، وعندها يستحسن أن ينسى إلى
الأبد الزواج من امرأة في جمال اللبثانيات.

* * *

"السفن" ..

نعم كانت هناك السفن. فعادة ما كان يقبل المجرمون
وأسرى الحرب والهاربون كبحارة ، لأنها كانت مهنة أكثر
خطورة من الجيش. ففي الحرب دائما لدى الجندي فرصة
ليفلت بحياته، لكن البحار مجهولة ومسكونة بالوحوش، وعندما
تقع المأساة لا يتبقى من يحكى الحكاية.
كانت هناك السفن، لكن كان التجار الفينيقيون
يتحكمون فيها.

ولم يكن "إيليا" مجرما أو سجيناً أو هارباً، لكنه كان
شخصاً جرواً على رفع صوته ضد الإله "بل". وهكذا عندما
يكشفونه، سيقتل ويلقى في البحر، لأن البحارة يعتقدون أن
"بل" وأربابه يتحكمون في العواصف . لا يستطيع أن يتجه
إلى المحيط. ولا يستطيع الذهاب إلى الشرق حيث تورطت
بعض القبائل الإسرائيلية في حروب استمرت جيلين.

* * *

أعاد استدعاء الشعور بالسكينة الذى جربه فى وجود
الجندي.

على كل - ماذا كان الموت؟ الموت مجرد لحظة -
ليس أكثر. حتى لو شعر بالألم ، فسيزول هذا الشعور فى
الحال، عندئذ سيضمه الله (إله الحشود) إلى صدره.
استلقى على الأرض، ونظر إلى السماء فترة طويلة .
ومثل "اللاوى" حاول أن يراهن. لم يكن يراهن على وجود
الرب، فليس لديه شك فى هذا، بل على الدافع وراء حياته.
رأى الجبال، والأرض التى سيعمها - عما قريب -
قحط طويل ، كما قال ملاك الله، لكنها حتى الآن ما زالت مندأة
بأمطار أجيال عديدة مضت.

رأى نهر (كربث) الذى ستوقف مياهه - فى وقت
قصير - عن الجريان . تقبل رحيله عن الدنيا بحماسة
واحترام، وتوسل إلى الله أن يتقبله عندما تحين ساعته. فكر
فى الدافع وراء وجوده ، ولم يحصل على أية إجابة.

فكر إلى أين يذهب ، واكتشف أنه محاصر. وفى اليوم
التالى سيعود ويسلم نفسه، حتى ولو عاوده الخوف من الموت.

حاول أن يجد بهجة فى معرفة أنه سيستمر حيا
لساعات قليلة. كل هذا هراء فلقد اكتشف أن الإنسان كما فى
معظم أيام الحياة، لا يقوى على اتخاذ قرار.

غدا ، أو بعد سنة من الآن، سيكون الفراش من الرمل الناعم والحجارة الملساء. ويظل السكان القدامى يشيرون إلى المكان بوصفه نهر (كريث)، وقد يوجهون المارين به قائلين: "هذا المكان يقع على ضفة النهر الذى يجرى قريبا من هنا". ويصل المسافرون إلى هناك، فيرون الحجارة المستديرة والرمل الناعم ويقولون لأنفسهم هنا فى هذه الأرض كان يوجد نهر.

لكن أهم ما يميز النهر، وهو جريان الماء، لم يعد موجودا لسيروى ظمأهم. والأرواح أيضا، مثل الأنهار والنباتات، فى حاجة لنوع مختلف من المطر: الأمل - الإيمان - ودافع للحياة. وعندما لا تتحقق هذه الحالة، يموت كل شئ فى الروح حتى لو استمر الجسد فى الحياة، وقد يقول الناس: (هنا - فى هذا الجسد كان يوجد، ذات مرة، رجل..). ولم يكن الوقت مناسباً للتفكير فى هذا.

ثانيا - تذكر المحادثة بينه وبين "اللاوى" قبيل
مغادرتهما الإسطبل.
ما الذى يضيفه الموت مرات عديدة، لإنسان يشعر
بالرضا؟

كل ما يجب عليه أن ينتظر جنود (إيزابيل). سوف
يأتون بلا أدنى شك، فثمة أماكن قليلة أمام الفارين من "جلعاد".
الأتمون يفرون غالبا إلى الصحراء، حيث يعثر عليهم أمواتا
فى غضون عدة أيام، أو إلى (كريث) حيث يقبض عليهم
سريعا. لهذا سيأتى الجنود قريبا، وسوف يبتهج برؤيتهم.

* * *

شرب قليلا من الماء الرقيق الذى يجرى جواره
وغسل وجهه . عندئذ بحث عن مكان ظليل يستطيع فيه انتظار
مطارئيه.

الإنسان لا يستطيع محاربة قدره، وقد حاول وخسر .
فبرغم اعتقاد الكهنة أنه نبي، قرر أن يعمل كنجار ، لكن الله
أعاده إلى طريقه.

ولم يكن (إيليا) الإنسان الوحيد الذى بهجر الحياة التى
كتبها الله لكل إنسان على الأرض. فقد كان له صديق ذو
صوت رائع لم يرغب أبواه أن يجعلاه مغنيا، لأن هذه المهنة
تجلب الخزي على العائلة.

وكانت له صديقة من أيام الطفولة استطاعت أن تصبح
راقصة ، لا نظير لها، هى الأخرى حرمت عليها عائلتها هذه
المهنة، لأن الملك يأمر باستدعائها - ، ولا يعلم أحد إلى متى

سيستمر حكمه، بالإضافة إلى أن المناخ فى القصر اعتبره الناس ملوثا بالخطيئة وعدائيا، مما يقضى نهائيا على أية إمكانية لزواج ناجح.

.. "الإنسان يولد ليخون قدره.."

فقط يضع الرب مهاما مستحيلة فى قلوب الناس.

"لماذا؟" ربما لأن العادات يجب الحفاظ عليها.

ولم تكن هذه الإجابة مناسبة. فساكن لبنان أكثر تقدما منا لأنهم لم يتبعوا عادات الملاحين، فعندما كان الآخرون يستخدمون نفس نوع السفن، قرروا بناء شئ مختلف. وخسر كثيرون حياتهم فى البحر، ورغم ذلك استمر تطور سفنهم. وهما هم اليوم يسيطرون على تجارة العالم. لقد دفعوا ثمننا غاليا ليتغيروا، وثبت أن الأمر يستحق.

وقد يكون الإنسان قادرا على خيانة قدره، لأن الرب ليس قريبا، فلقد وضع فى قلوب الناس حلما بعصر كان كل شئ ممكنا فيه، وبعد ذلك شغل نفسه بأشياء أخرى. وغير العالم من نفسه، وأصبحت الحياة أكثر صعوبة. لكن الله لم يعد ليغير أحلام الإنسان.

الرب بعيد. وعندما يداوم على إرسال ملائكته ليتحدثوا إلى أنبيائه؛ فهذا يعنى أن شيئا ما تبقى ويجب القيام به.

فماذا تكون الإجابة؟

ربما لأن آباءنا سقطوا فى الخطأ، وخافوا أن نكرر أخطاءهم. وربما لم يخطئوا أبدا، ولهذا لم يعرفوا كيف

يساعدوننا عندما تواجهنا بعض المشاكل. شعر أنه يقترب من الإجابة. كان النهر يجري إلى جواره، وقليل من الغربان تحوم في السماء، والنباتات تنشب بإصرار كى تحيا فى الأرض الرملية المجذبة. فهل أنصتوا إلى كلمات أسلافهم؟ وماذا سمعوا؟

.. (يا "نهر" ابحث عن مكان أفضل لمياهك الصافية لتعكس بريق الشمس، فالصحراء ذات يوم ستجعلك تجف) هكذا سيقول إله المياه، إذا كان له وجود. وسيقول إله الطير: (يا "غربان" هناك الكثير من الطعام فى الغابات أكثر مما يوجد بين الصخور والرمال).

وسيقول إله الزهور: (يا نباتات، انشرى بذورك بعيدا عن هنا، فالعالم ملى بالأرض الرطبة الخصبة، وعندها ستصبحين أجمل..).

لكن (كريث) مثله مثل النباتات والغربان؛ وأحدهما حط بالقرب من هنا؛ لديه الشجاعة الكافية ليفعل ما ظننته الأنهار والطيور والزهور الأخرى مستحيلا. حلق "إيليا" فى غراب، وقال للطائر: أنا أعلم. رغم أن الدرس بلا جدوى لأنه محكوم على بالموت.

بدا أن الطائر يجيب: ها قد اكتشفت كم كل شئ بسيط، يكفى التحلى بالشجاعة. ضحك "إيليا"، لأنه كان يضع الكلمات فى فم الطائر. كانت لعبة مسلية؛ تعلمها من امرأة تصنع الخبز.

وقرر الاستمرار . سوف يسأل ويجب كما لو كان
حكيمًا حقيقياً.

على كل - طار الغراب، وعاد "إيليا" إلى انتظار جنود
(إيزابيل) ليموت ميتة نهائية وهو يشعر بالرضا.
ومر اليوم دون حدوث أى شئ . فهل يكونون قد نسوا
أن العدو الرئيسى للإله (يعل) ما زال حياً؟
يجب أن تكون (إيزابيل) على علم بمكانه - فلماذا لا
تطارده؟

قال لنفسه: عرفت بعد أن رأيت عينيها أنها امرأة
حكيمة. ولهذا أدركت أنني إذا مت، فساخذ كشهد فى سبيل
الله. أما إذا تحولت إلى مجرد هارب، فساصبح جباناً لا يؤمن
أحد بكلامه.

نعم - هذه هى استراتيجية الأميرة.

• • •

قيل حلول المساء حظ غراب - هل من الممكن أن
يكون نفس الغراب؟ - على نفس الغصن الذى سبق ورآه عليه
هذا الصباح وكانت شمة قطعة لحم صغيرة فى منقاره سقطت
فجأة. ولم يعرف "إيليا" من أين جاءت، ولم يكن يرغب، فكل
ما كان يهمله أنه سيشبع جزءاً صغيراً من جوعه.
وبرغم حركة (إيليا) المفاجئة، لم يطر الغراب.
فخمن : هذا الغراب يعرف أنني كنت معرضاً للموت
جوعاً هنا. إنه يطعم فرسته ليحصل على وليمة أفضل فيما
بعد.

مثلما غنت (إيزابيل) الإيمان بـ (بعل) بأخبار عن هروب "إيليا".

... كلاهما، الإنسان والغراب، يتأمل أحدهما الآخر.

واستدعى اللعبة التي لعبها هذا الصباح.

قال "إيليا" : أرغب في الحديث إليك يا غراب. هذا الصباح ظننت أن الأرواح تحتاج الطعام. وإذا كانت روحى لم تهلك من الجوع، فقد يعنى هذا أن لديها شيئاً ترغب فى البسوح به. وظل الطائر ساكناً.

تابع "إيليا": وإذا كان لديها ما تبسوح به، فيجب أن أنصت، فليس لدى أحد آخر أتحدث إليه. وفى خيالاته تقمص "إيليا" الغراب وسأل نفسه كما لو كان يسأل الغراب:

• ماذا يتوقع الرب منك؟

- يتوقع أن أكون نبيا

• هذا ما قاله الكاهن، وقد لا يكون ما يرغبه الرب.

- نعم هو ما يرغب. فلقد ظهر ملاك لى فى الدكان

وطلب منى أن أتحدث إلى (أخاب). سمعت

الأصوات مثل طفل.

• قاطعة الغراب: كل واحد يسمع أصواتا مثل

الأطفال.

- قال "إيليا": لكنه لا يرى ملاكا.

هذه المرة لم يعلق الغراب. وبعد فترة صمت اخترق

هذين الطائر، أو هو روحه فى الغالب، من حرارة الشمس

والوحدة فى الصحراء، اخترق الصمت وسأل نفسه: هل تتذكر

المرأة التى اعتادت إعداد الخبز؟

تذكر "إيليا"، لقد جاءته تطلب منه أن يصنع لها بعض الصواني، وأثناء عمله لإنجاز ما طلبت، سمعها تقول إن عملها وسيلة للتعبير عن وجود الرب.

وقالت: من أسلوبك في صناعة الصواني أرى لديك نفس الشعور، لأنك تبتمس وأنت تعمل. كانت المرأة ترى أن الناس صنفان: صنف يحمل الشعور بالبهجة داخله، أما الصنف الآخر فدائم الشكوى مما يفعل، وهؤلاء يؤكدون أن اللعنة التي ألغها الله على آدم هي الحقيقة الوحيدة: (ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك) وهم لا يشعرون بأية متعة ويستخدمون كلمات الرب مبررا لحياتهم التافهة، متناسين أن الرب قد قال لـ "موسى" أيضا:

(لأن الرب إنما يباركك في الأرض التي يعطيك الوهب إليك نصيبا لتمتلكها) نعم.. أتذكر المرأة. لقد كانت على حق، فأننا أسئمت بعمل في دكان النجارة، لقد علمتني أن أتحدث إلى الأشياء.

وجاءه الرد: إذا لم تعمل كنجار، ما كنت لتستطيع أن تضع روحك خارجك.. لتتظاهر بأنها غراب يتكلم، ولتدرك أنك أفضل وأكثر حكمة مما تعتقد. فلقد اكتشفت في دكان النجارة أن القداسة موجودة في كل شيء.

قال "إيليا": دائما كنت أشعر بالسعادة عندما أنظأهر بمحادثة المناضد والكراسى التى صنعتها: ألم يكن هذا كافيا؟ . وعندما تحدثت إليها، كنت أجد أفكارا لم ترد إلى رأسى من قبل. وقد أخبرتنى المرأة أن هذه الحالة ترجع إلى أننى أضاع

الجزء الأكبر من روى فى العمل، وهذا الجزء هو ما كان يجيبلى.

لكن عندما بدأت أدرك أننى أستطيع خدمة الرب بهذه الطريقة، ظهر الملاك و ... حسنا - أنت تعرف الباقي.

- قال الغراب: ظهر الملاك لأنك كنت جاهزا لذلك.
● قال "إيليا": كنت نجارا ماهرا.

- "كل هذا جزء من مهنتك. فعندما يتوجه المرء نحو قدره، غالبا ما يجبر على تغيير وسائله فى الحياة. وفى أحيان أخرى تكون القوى المحيطة بالإنسان قوية للغاية، ويجبر على التخلص عن شجاعته وقدرته على المنح. كل هذا جزء من المهنة".

أنصت "إيليا" باهتمام إلى كل ما كانت روحه تقول.

- "لكن لا أحد يفقد رؤية ما يرغبه . حتى فى تلك اللحظات التى يعتقد فيها أن العالم والآخرين أقوى منه. ويكمن السر فى : لا تستسلم".

● قال "إيليا" : لم أظن أننى قد أصبح نبيا.
- "لقد فعلت، لكنك كنت مقتنعا أن هذا مستحيل أو خطير أو غير منطقي".
وقف "إيليا" وقال: لماذا تخبرنى بما لا أربح فى سماعه.
.. جفل الطائر، وطار.

• • •

عاد الطائر فى الصباح التالى. وبدلاً من معاودة الحديث، بدأ "إيليا" يتأمله، فالحويان دائماً يسعى لإطعام نفسه ويحضر له ما يتبقى من طعام. نشأت علاقة غامضة بينهما. وبدأ "إيليا" يتعلم من الطائر.

وبمتابعته، رأى أنه يبحث عن الطعام فى الصحراء، واكتشف أنه يستطيع النجاة عدة أيام أخرى إذا تعلم القيام بنفس الشئ.

وعندما طار الغراب، دار حول نفسه، فعرف "إيليا" أن ثمة فريسة فى متناول اليد و عليه أن يجرى لهذه البقعة ليمسك بها.

فى البداية فر الكثير من الحيوانات الصغيرة التى تعيش هناك . لكنه اكتسب تدريجياً المهارة والرشاقة اللازمة لاصطيادها. استخدم الفروع كرماح، وحفر فخاخاً أخفاها بطبقة رقيقة من الأغصان والرمال.

وعندما تسقط الفريسة، يقسم "إيليا" الطعام بينه وبين الغراب، ويحجز جزءاً من الطعام ليستخدمه كطعم. لكن الحالة الوحيدة التى وجد نفسه فيها كانت بشعة ومحبطة ، ولهذا قرر التظاهر بمحادثة الغراب.

- سألته الغراب: من أنت؟

- أجاب "إيليا": أنا رجل وصل إلى السكينة . أستطيع العيش فى الصحراء، أعول نفسى، وأتأمل الجمال اللامتناهى فى مخلوقات الرب. اكتشفت أن بداخلى روحاً أفضل بكثير مما ظننت.

واستمر يصيدان معا شهرا قمريا آخر .
و ذات ليلة عندما مس الأمسي روحه، سال نفسه ثانية :
من أنت؟
ولجاب: لا أعرف.

• • •

مات قمر آخر ثم ولد من جديد فى السماء.
شعر "إيليا" أن جسده أقوى، وذهنه أكثر صفاء.
فى المساء استدار إلى الغرباب الذى كان قد حط على
نفس الفرع، وأجاب عن السؤال الذى طرحه منذ عدة أيام
مضيت:

"لنا نبى، رأيت ملاكا أثناء عملى، ولا أشك فى قدرتى
على القيام بذلك حتى ولو أخبرنى العالم بالعكس. جلبت الهلاك
على وطنى بتحدى أقرب الناس إلى قلب الملك. أنا فى
الصحراء، كما كنت قبل ذلك فى دكان النجارة، لأن روحى
أخبرتني أن الإنسان يجب أن يمر بمراحل مختلفة قبل أن يشيع
قدره.

علق الغرباب: نعم . الآن أنت تدري من تكون.
فى هذه الليلة، عندما عاد "إيليا" من الصيد، ذهب
ليشرب فوجد نهر (كريث) قد جف. لكنه كان مرهقا جدا وقور
أن ينام.

فى الحلم جاءه ملاكه الحارس الذى لم يره منذ زمن
بعيد، وأمره : (انطلق من هنا، واتجه نحو المشرق واختبئ
عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن، فتشرب من النهر وقد
أمرت الغرباب أن تعولك هناك).

"روحي سمعت" - قال "إيليا" في الحلم.
"إذن استيقظ، ملاك الرب يأمر بك بهذا، ويرغب في
الحديث إليك.." قفز "إيليا" مروعا، وصاح ماذا حدث؟
فرغم أنه المساء، كان المكان ممتلئا بالضوء، وظاهر
ملاك الرب.

سأله الملاك: ما الذي جاء بك إلى هنا؟
أجاب "إيليا": أنت من جاء بي إلى هنا.
قال الملاك: لا ، بل (إيزابيل) وجنودها هم سبب
فرارك. لا يجب أن تنسى هذا، فالمهمة هي الانتصار للرب
الإله.

قال "إيليا" : أنا نبي ، لأنك كائن في وجودي، وأسمع
صوتك.

قد غيرت وجهاتي عدة مرات مثلما يفعل كل الرجال،
لكنني مستعد للذهاب إلى "سامرة" للقضاء على (إيزابيل).
قال الملاك: رغم أنك وجدت الطريق، فلا تستطيع أن
تدمر؛ ما لم تتعلم أن تبني جديدا. ولذا أمرك:
(قم واذهب إلى صرفة التي لصيدون وأقم هناك. هو
ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك).

في الصباح التالي. بحث "إيليا" عن الغراب ليودعه،
ولأول مرة منذ وصوله إلى ضفة نهر "كريث" لم يظهر
الطائر.

سافر "إيليا" عدة أيام قبل وصوله إلى الوادى حيث تقع مدينة (صرفة) التى يعرف سكانها بـ "الأكبار".
وعندما كادت قواه تخور، رأى امرأة ترتدى السواد وتجمع الحطب. كانت الخضرة متناثرة فى الوادى ولهذا كان عليها أن تنقع ببعض غصون صغيرة وجافة.
سألها: من أنت؟

نظرت المرأة للأجنبى. ولم تكن - بحق - تفهم ما قال.

قال "إيليا": احضرى لى ماء لأشرب، واحضرى كذلك كسرة خبز، وضعت المرأة الحطب جانباً، وظللت لا تتطرق بشئ.

قال "إيليا" بإصرار: لا تخافى. أنا وحيد وجائع وظمآن ولا أقوى على إيذاء أى إنسان.
نطقت المرأة أخيراً: أنت لست من هنا. ومن لهجتك أجزم أنك من مملكة إسرائيل. وإذا كنت تعرفنى جيداً، فستعلم أنى لا أملك أى شئ.

قال "إيليا": أنت أرملة. هذا ما أخبرني الله به. وما
أملكه قد يكون أقل مما تملكين. وإذا لم تمنحني الطعام
والشراب الآن؛ فسوف أموت.

تراجعت المرأة للخلف متسائلة: كيف لهذا الأجنبي أن
يعرف حياتها؟

وبعد أن أفاقَت قالت: على الرجل أن يشعر بالعار
عندما يطلب العون من امرأة. قال "إيليا" بإصرار: افعل كما
أطلب، مستشعرا أن قوته في طريقها للزوال، وعندما أتحسن
سأعمل لديك.

ضحكت المرأة وقالت: منذ لحظات قلت شيئا حقيقيا:
أنا أرملة فقدت زوجها على ظهر واحدة من سفن بلدى. لم أر
المحيط أبدا، لكننى أعرف أنه مثل الصحراء يقتل من يتحداه.
وأكملت: لكك الآن قلت لى شيئا خاطئا. فمثلما أنا
موقنة من وجود (بعل) على قمة الجبل الخامس، أعرف أنه لا
يوجد عندى أكثر من كف من الدقيق فى برميل ومقدار ضئيل
من الزيت فى قارورة.

راى "إيليا" الأفق يغير اتجاهه، فأدرك أنه سيفقد وعيه.
استجمع اخر ما به من قوة، وتوسل إليها لآخر مرة:
"لا أعرف إذا كنت تعتقدين فى الأحلام أم لا، ولا أعرف ما إذا
كنت أنا شخصا أعتقد فيها، لكن الله أخبرنى أن أصل إلى
هناك وأجذك. لقد فعل أشياء دفعتنى لأشك فى حكمته، لكن
ليس فى وجوده. وهكذا أخبرنى إله إسرائيل أن أقول للمرأة
التي سأقابلها فى "صرفة": (كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت

لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى الرب مطرا على وجه الأرض).

وقبل أن يفسر كيف حدثت هذه المعجزة، فقد "إيليا" وعيه.

وقفت المرأة تحديق فى الرجل المستلقى عند قدميها . كانت تعرف أن إله إسرائيل مجرد خرافة ، والهة الفينيقيين أكثر قوة، ولقد جعلت من وطنها واحدا من أكثر الأمم احتراما على ظهر الأرض.

رغم ذلك كانت سعيدة. فعادة ما تطلب الإحسان من الآخرين ، والان - كما لم يحدث من زمن طويل - يحتاج رجل إليها.

جعلها هذا تشعر بالقوة، فلقد كان دليلا على وجود آخرين فى ظروف أسوأ منها. وقالت: إذا كان ثمة شخص يطلب منى صنيعا، فهذا يرجع إلى أننى ما زلت نافعة على هذه الأرض.

سافعل كما طلب، فقط لأخفف معاناته، فلقد جربت الجوع وأعرف قدرته على تدمير الروح.

ذهبت إلى منزلها، وعادت بقطعة خبز وبعض الماء . ركعت على ركبتيها ووضعت رأس الأجنبي فى حجرها، وبدأت تبلى شفتيه.

.. بعد دقائق قليلة استعاد وعيه.

رفعت إليه الخبز، أكل "إيليا" فى هدوء، وهو يحرق فى الوادى والوهاد والجبال الشاخصة فى صمت تجاه السماء.

استطاع "إيليا" أن يرى الجدران الحمراء لمدينة
(صرفة) مسيطرة على الطريق عبر الوادي.
"دعيني أقيم معك لأنني منبؤ قسّ وطنى" - قال
"إيليا".

سألته المرأة : أى جرم اقترفت؟!
قال "إيليا": أنا نبى الله. وأمرت (إيزابيل) بموت كل
الذين يرفضون عبادة الآلهة الفينيقية .
سألته: كم عمرك؟
أجبت: ثلاثة وعشرون عاما.
نظرت بامعان إلى الشاب المستلقى أمامها. كان له
شعر طويل قدر، ولحية غير كثيفة، فبدا كما لو كان يرغب أن
يبدو أكبر من سنوات عمره.

تساءلت : كيف يستطيع تابع فقير مثله أن يتحدى
أقوى أميرة فى العالم؟ وقالت: إذا كنت عدوا لـ (إيزابيل)
فانت عدوى كذلك. فهى أميرة (تاير) ومهمتها منذ زواجها
بملكك ؛ أن تحول الناس إلى الإيمان الحقيقى، أو هكذا قال
هؤلاء الذين قابلوها...!!

أشارت إلى أحد القمم التى تحيط بالوادي، وقالت:
الهيئة تعيش فى الجبل الخامس منذ أجيال عديدة، وقد حفظت
السلام فى بلدنا. أما إسرائيل فتعيش فى حرب ومعاناة. فكيف
تستمر فى الإيمان بالله واحد؟ امنح "إيزابيل" الوقت لتتجز
عملها، وسرنا ترى السلام يعم كل المدن.

قال "إيليا": لقد سمعت صوت الله. أما قومك فلم يتسلقوا أبداً إلى قمة الجبل الخامس ليكتشفوا ماذا يوجد هناك.
قالت المرأة: أى شخص يتسلق الجبل الخامس سنقتله النار المنبعثة من السماء، فالآلهة لا تحب الغرباء.
وصمتت ، فلقد تذكرت حلمها الليلة الماضية بضوء ساطع، ومن داخله أتى صوت يقول: "استقبلي الغريب الذى أتى بحثاً عنك..".

قال "إيليا" بإصرار : امنحيني مكانا عندك، فلا مكان عندي لأتلم.

قالت: أخبرتك أتى فقيرة، بالكاد لدى ما يكفينى وابنى.
قال: الله طلب إليك أن أبقي، وهو لا يخذل من يحبهم .
الفعلى ما أطلبه منك وسوف أعمل عندك، أنا نجار وأعرف كيف استخدم خشب الأرز ولن يكون ثمة شئ لا أستطيع القيام به. وهكذا سوف يستخدم الله يدي ليحفظ وعده: (كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى الرب مطرا على وجه الأرض).
قالت المرأة: حتى لو رغبت فى ذلك، فلن أستطيع الدفع لك.

قال "إيليا": لا حاجة لذلك. الله سوف يفعل..
مرتبكة من حلم الليلة السابقة، وبما عرفته من أن الغريب عدو لأميرة "تاير"، قررت المرأة أن تطيع.

سرعان ما اكتشف الجيران وجود "إيليا" . وتناقل الناس أن الأرملة قد استضافت أجنبيا في منزلها، مما يسيئ إلى ذكرى زوجها، البطل الذى مات فى محاولة لمد الخطوط التجارية لوطنه.

وعندما سمعت الإشاعات ، ردت عليها بأنه نبى إسرائيلى جاءها قارا من الجوع والعطش. وانتشر الخبر بأن نبيا إسرائيليا هاربا من (إيزابيل) مختبئ فى المدينة. وذهب الجمع لمقابلة كبير الكهنة الذى أمر بإحضار الأجنبى إليه. ونفذ أمره فى مساء نفس اليوم. جاءوا بـ "إيليا" إلى "كبير الكهنة" الذى يسيطر مع الحاكم وقائد الجيش على ما يحدث فى (أكبار)

سأله "كبير الكهنة" : ما الذى جئت لتفعله هنا؟ ألا تدري أنك عدو بلدنا؟

أجاب "إيليا": لسنوات وأنا أتاخر مع لبنان، واحترم شعبكم وعاداته.

أنا موجود هنا؛ لأننى منبؤ فى إسرائيل.
قال "كبير الكهنة" : أعرف السبب. أليست امرأة هى
التي جعلتك تهرب؟

قال "إيليا": هذه المرأة هى أجمل مخلوق قابلته فى
حياتى كلها، رغم أننى وقفت أمامها لبرهة قصيرة. لكن قلبها
كالحجر . وخلف هاتين العينين الخضراوين يكمن العدو الذى
يرغب فى تدمير وطنى. أنا لم أفر، فقط، أتحين اللحظة
المناسبة للعودة.

ضحك "كبير الكهنة" وقال : إذا كنت تتحين اللحظة
المناسبة لتعود، جهز نفسك أن تبقى فى (أكبار) لبقية حياتك.
لسنا فى حرب مع بلدك. كل ما نتوق إليه أن نرى الإيمان
الحقيقى ينتشر بطرق سلمية فى شتى أنحاء العالم. ولا رغبة
لدينا فى تكرار الأعمال الوحشية التى اقترفها شعبك عندما
نصبتم أنفسكم حكاما على كنعان.

قال "إيليا": هل قتل الأنبياء من الطرق السلمية؟
قال "كبير الكهنة" : إذا قطعت رأس الوحش، لن
يصبح له وجود. قد يموت البعض، ورغم ذلك لا يمكن تجنب
الحروب العقائدية للأبد. ومما نقله التجار أن نبيا اسمه "إيليا"
هو الذى أشعل كل هذا، وفر.
وحق فيه كبير الكهنة قبل أن يكمل: إنه رجل يبدو
قريب الشبه منك.

رد "إيليا" : إنه أنا.

قال "كبير الكهنة" : رائع . مرحبا بك فى مدينة
(أكبار). فعندما تكون لنا حاجة عند "إيزابيل" ، سندفع رأسك
مقابلها ، فهى أهم ما نمتلكه من عملات. وحتى ذلك الوقت،
فنش عن وظيفة وتعلم كيف تعول نفسك. فهنا لا مكان للأنبياء.
وكان "إيليا" يستعد للرحيل عندما قال له "كبير الكهنة":
يبدو أن امرأة شابة من صيدا أقوى من إلهك، فلقد نجحت فى
إنشاء مذبح ليعل، وأمامه الآن يسجد الكهنة العجائز.
قال (النبي): كل شئ سيتم كما كتب الرب.
فثمة لحظات تحدث فيها محن وبلايا فى حيواتنا ولا
نستطيع تجنبها . لكنها موجودة لسبب ما.
سأل "كبير الكهنة" : أى سبب تعنى؟
قال "إيليا" : هذا هو السؤال، ولا نستطيع الإجابة قبل
أو أثناء المحن. فقط عندما نتغلب عليها سنفهم لماذا كانت
موجودة.

* * *

وبمجرد رحيل "إيليا" ، دعى "كبير الكهنة" جمعا من
المواطنين الذين قد شاهدوه هذا الصباح، وقال لهم : لا شأن
لكم بهذا الأمر ، فالعادات توجب أن نستضيف الأجانب.
بالإضافة إلى أنه هنا تحت سيطرتنا ونستطيع متابعة خطواته.
فأفضل طريقة لمعرفة وتدمير خصمك هى التظاهر بأنك
أصبحت صديقه. وعندما يحين الوقت سوف نسلمه إلى
(إيزابيل) ، ومقابلته سنتسلم مدينتنا الذهب وغيره من المكافآت.
وحتى هذا الحين، سنكون قد تعلمنا كيف ندمر أفكاره،
فحتى الآن لا نعرف إلا كيف ندمر جسده.

ورغم أن "إيليا" كان عابدا لإله واحد، وهو عدو لدود
للأميرة، فضل "كبير الكهنة" احترام حق اللجوء. فكل واحد
يعرف التقاليد القديم: إذا رفضت مدينة توفير مأوى لمسافر،
فسيوأجه أبناؤها نفس المشكلة.

وحيث إن الجزء الأكبر من مواطني (أكبار) لهم أبناء
منتشرون في كل الأسواق التجارية لبلدهم، لم يجرؤ أحد على
تحدى قانون الضيافة.

بالإضافة إلى أنه لن يكلفهم شيئا أن ينتظروا اليوم
الذي تبادل به رأس النبي اليهودى بكمية كبيرة من الذهب.

وفى هذا المساء تناول "إيليا" العشاء مع الأرملة
وابنها، فلقد أصبح النبي الإسرائيلى سلعة قيمة للمساومة
والمقايضة فى المستقبل. ولهذا أرسل تجار كثيرون ما يكفى
لإطعام ثلاثتهم لمدة أسبوع.

قالت الأرملة : يبدو أن الرب إله إسرائيل يحفظ
وعده. فمنذ موت زوجى لم تمتلئ منضدتى مثل اليوم.

* * *

.. شيئاً فشيئاً أصبح "إيليا" جزءاً من الحياة فى "صرفة"، مثل جميع سكانها أصبح يدعى بـ "أكبار".
 قابل الحاكم، وقائد الجيش، وكبير الكهنة، وكبير صناع الزجاج - المشهورين فى أرجاء المنطقة.
 وعندما سئل عن السبب الذى جاء به إلى هنا، لم يكن يستطيع سوى النطق بالحقيقة، فقال : كانت إيزابيل تذبذب الأتبياء فى إسرائيل.
 قالوا: أنت خائن لبلدك ، وعدو لفينيقيـا . لكننا تجار نعرف أنه كلما كان الرجل خطيراً كلما ارتفع ثمنه.
 وعلى هذه الحال - مضت عدة شهور.

* * *

عند مدخل الوادي، أقام بعض جنود الاستكشاف
الأشوريين معسكرا لهم. مما جعل الأمر يبدو أنهم ينوون
البقاء.

ورغم أن مجموعة صغيرة من الجنود لا تمثل أى
خطورة ، فلقد طلب القائد من الحاكم اتخاذ بعض الإجراءات.
قال الحاكم: لكنهم لم يفعلوا شيئا لنا. هم حتماً فى
مهمة تجارية، يبحثون عن طريق أفضل لبضائعهم . وإذا
قرروا استخدام طرقنا فسيدفعون ضرائب مقابل ذلك،
وسيزيدنا ذلك ثراء. فلماذا نستشيرهم؟

ولتزداد الأمور تعقيدا، مرض ابن الأرملة بلا سبب
واضح، وأرجع الجيران مرضه إلى وجود الغريب فى بيتها.
فطلبت الأرملة من "إيليا" أن يرحل. لكنه لم يرحل، لأن الله لم
يشأ بعد.

وانتشرت الشائعات بأن الأجنبى جلب لعنة آلهة الجبل
الخامس.

على مبعدة، وفي منتصف الوادى، بدأت خيام المقاتلين الآشوريين تتزايد، كان القائد مهتما ، لكنه لم يلق تأييد الحاكم أو كبير الكهنة. وحاول أن يبقى مقاتليه متاهبين دائما، رغم ما يعرفه من أنهم، وحتى أجدادهم، لم يعرفوا معنى المواجهة الحربية. فالحرب كانت شيئا مستبعدا فى (أكبار) . وكل الاستراتيجيات التى تعلمها تم تجاوزها بالتقنيات والأسلحة الجديدة التى استخدمتها البلاد الأخرى.

قال الحاكم: دائما كانت (أكبار) تتفاوض من أجل السلام. وليس هذا بالوقت الذى يسمح بغزونا. دع البلاد الأخرى تتعارك فيما بينها، فنحن لدينا سلاح أقوى بكثير مما لديهم من أسلحة. لدينا "المال". وعندما ينتهون من تدمير بعضهم البعض، سندخل مدنهم ونبيع منتجاتنا.

نجح الحاكم فى تهدئة الجماهير تجاه الآشوريين . لكن الشائعات ذاعت بأن الإسرائيلى جلب لعنة الآلهة على (أكبار). وأصبح "إلييا" مشكلة ضخمة .

فى الظهيرة - ساعت حالة الولد بشدة. أصبح لا يستطيع التحمل أكثر من ذلك، أو التعرف على الذين يأتون لزيارته.

وقبيل غروب الشمس ركع "إيليا" والأرملة بجوار سرير الطفل.

قال "إيليا": أيها الإله العظيم، الذى وجه سهم الجندى، وجاء بى إلى هنا، اشف هذا الطفل فهو لم يقترب شيئا، إنه برئ من خطاياى وخطايا أبيه . أنقذه يا الله.

بالكاد تحرك الطفل. كانت شفاته شاحبتين ، وعيناه تفقدان بريقهما سريعا. سألته الأرملة: صل لإلهك ، لأجل امرأة وحيدة تستشعر رحيل روح ابنها. شعر "إيليا" بالرغبة فى إمساك يديها ، ليخبرها أنها ليست وحيدة، وأن الله العظيم سوف يساعد، فهو نبي قبل الحقيقة على ضفاف نهر "كريث"، والان الملائكة إلى جواره.

أكملت الأرملة: لم يعد لدى دموع . إذا لم يكن لديه أى شعور بالرحمة، وإذا كان ما يريد هو حياة شخص ما، أطلب منه أن يأخذنى ويدع ابنى يمشى فى الوادى وفى طرقات (أكبار).

فعل "إيليا" كل ما فى وسعه ليركز فى صلاته وتوسله، لكن معاناة الأم كانت شديدة، لحد أنها بدت كما لو كانت احتوت الحجرة واخترقت الجدران والباب فى كل مكان. مس جسد الولد، ولم تكن حرارته بنفس ارتفاع الأيام السابقة، وكانت هذه علامة سيئة.

* * *

جاء كبير الكهنة إلى المنزل هذا الصباح، وكما سبق
وفعل طوال أسبو عين وضع كمادات الأعشاب على وجه الولد
وصدره.

فى الأيام السابقة أحضرت النساء وصفات العلاج
المجربة لأجيال، التى أثبتت قدرتها الفائقة على الشفاء فى
حالات عديدة.

وكل ظهيرة يجتمعن عند سفح الجبل الخامس ويقدمن
القرايين حتى لا تفارق روح الولد جسده.

ودفعت هذه الحالة تاجرا مصريا كان يمر بـ (أكبار)
إلى منح أمه "مسحوقا أحمر" - بلا مقابل - ليخلط مع طعام
الولد.

وحسب الأسطورة ، فإن تقنية صنع هذا المسحوق سر
اختصت به الالهة المصرية الأطباء المصريين.

وواصل "إيليا" صلاته بلا توقف. ولم يحدث أى
تحسن.

* * *

"أعرف لماذا سمحوا لك بالبقاء هنا" ، هكذا قالت
المرأة بصوت يزداد ضعفا فى كل مرة تتكلم، لأنها لم تتم لليلال
عديدة، أعرف أن ثمة سعرا لرأسك ، وفى يوم سيملمونك إلى
إسرائيل مقابل الذهب. أما إذا أنقذت ابنى ، فإننى أقسم بـ
"بعل" وبكل أرباب الجبل الخامس أنك لن تقع فى أيديهم مطلقا،
فانا أعرف طريقا للهرب نسيت منذ أجيال، وسوف أعلمك كيف
ترحل من (أكبار) بدون أن ترى.

ولم يرد "إيليا".

سألته ثانية : صل لربك الإله الواحد. فإذا أنقذ ابنى ،
أقسم اننى سأبذل "بعل" وأؤمن به. قل له كيف أننى منجّك
الماوى عندما كنت بحاجة له، وهكذا فعلت كما أمر .

صلى "إيليا" ثانية بكل ما به من قوّة . وفى هذه
اللحظة ارتعش الولد، وقال بصوت ضعيف: أريد أن أرحل
عن هنا.

التمعت عينا أمه بالسعادة، وتدرجت الدموع على
وجنتيها ، وقالت: تعال يا بنى ، سنرحل إلسى حيث تحب،
ونفعل كما ترغب.

حاول "إيليا" حمله، لكن الولد دفع يده بعيدا وقال: أريد
أن أفعل هذا بنفسى . نهض ببطء ومشى باتجاه الغرفة
الخارجية. وبعد خطوات معدودة سقط على الأرض كما لو
كانت أردته طلقّة من الضوء.

جرى "إيليا" والأرملة إليه. كان الولد ميتا.

للحظة لم يتفوها بكلمة . وفجأة بدأت المرأة تصرخ
بكل قوتها: "اللعة على الآلهة! اللعة على كل من أخذ طفلى
منى! اللعة على الرجل الذى جلب الشؤم على بيتى! طفلى
الوحيد..... وصرخت.

ألأئننى احترمت إرادة السماء، ألأئننى كنت كريمة مع
الأجنبى.. يموت ابنى...!!"

سمع الجيران نحيب الأرملة، وشاهدوا ابنها ملقى على
ارض المنزل.

كانت المرأة لا تزال تصرخ وقبضتها تخبطان صدر
النبي الإسرائيلى إلى جوارها.
وبدا أنه فقد أية قدرة على رد الفعل، ولم يفعل شيئا
ليدافع عن نفسه.

وأثناء ما كانت امرأة تحاول تهدئة الأرملة ، حاصر
الرجال "إيليا" سريعا بأذرعهم واقتادوه إلى الحاكم، وقالوا: هذا
الرجل كافأ الكرم بالكراهية. ووضع اللعنة فى بيت الأرملة،
ومات ابنها. لقد أوبنا شخصا لعنته الآلهة. بكى الإسرائيلى
وسأل نفسه : "آه يا إلهى وربى، حتى هذه الأرملة التى كانت
كريمة معى، اخترت أن تعذيبها..!؟".

وإذا أهلك ابنها ، فسيكون هذا بسبب فشلى فى
المهمة التى أوكلتها إالى، وعندها أكون أنا من يستحق
الموت..!!

فى هذا المساء - اجتمع مجلس المدينة تحت قيادة
كبير الكهنة والحاكم، وأحضروا "إيليا" لمحاكمته.
قال الحاكم: اخترت أن تقابل الحب بالكراهية . لذا
حكمت عليك بالموت حتى لو كانت رأسك تساوى كيسا من
الذهب. لا نستطيع أن نجلب علينا غضب آلهة الجبل الخامس.
وفى النهاية لن يعيد كل مال العالم، السلام إلى هذه المدينة.
نكس "إيليا" رأسه. فهو يستحق كل المعاناة التى
يتعرض لها، لأن الله قد خذله.

قال كبير الكهنة: ستتسلق الجبل الخامس. وستطلب
المغفرة من الآلهة التى حقرت شأنها ؛ وسوف تنزل نارا من

السماء لتهلكك . وإذا لم تفعل، فهذا لأنها ترغب فى تحقيق العدالة على أيدينا. وسوف ننتظر عند سفح الجبل. وحسب الشعائر ستعدم فى الصباح القالى.

كان "إيليا" على دراية بالإعدام المقدس: ينتزعون القلب من الصدر، ويقطعون الرأس. وحسب المعتقدات القديمة لا يدخل الجنة رجل بلا قلب.

صرخ "إيليا": لماذا اخترتنى لهذا يا الله؟!

- ويعرف أن الرجال وهو منهم لا يعرفون شيئا عما اختاره الله لهم. فهل ترى أننى غير قادر على تنفيذ ما طلبته منى؟ ولم يسمع أية إجابة ..

بالصراخ الهتاف وارتطام الأحجار، تبع الرجال والنساء المجموعة التي حرسَت الإسرائيلى إلى الجبل الخامس. وبصعوبة بالغة نجح الجنود فى السيطرة على الزحام. وبعد السير لنصف ساعة وصلوا إلى سفح الجبل المقدس.

وقفت المجموعة المصاحبة لـ "إيليا" عند المذابح الحجرية، حيث يترك الناس هداياهم وقرابينهم، رغباتهم وصلواتهم.

كان الجميع يعرفون قصص العمالقة التى تعيش فى المنطقة، وتذكروا هؤلاء الذين تحدوا التحريم فقط للمطالبة بالنار السماوية، والمسافرون المارون بالوادى فى المساء يسمعون ضحكات الأرباب والربيات وهى تمرح فى الأعلى. ورغم أنه لا أحد متأكد من ذلك، لم يجرؤ أحد على تحدى الآلهة.

قال جندي: لنذهب. ناخسا "إيليا" برأس رحله. فمن
يقتل طفلا يستحق أسوأ عقاب هناك.

* * *

صعد "إيليا" إلى المنطقية المحرمة، وبدأ يتسلق
المنحدر.

وبعد السير لبعض الوقت ، وحينما لم يسمع صراخ
الناس من (أكبار) ، جلس على صخرة ويكي. فمنذ اليوم الذي
رأى فيه الظلمة وقد انتشرت بها بقع براقعة من الضوء، نجح
فقط في جلب سوء الحظ على الآخرين.
لقد فقد الله أنصاره في إسرائيل، وعبادة الآلهة الفينيقية
بالتأكيد أصبحت الآن أقوى من قبل.

في ليلته الأولى بجوار "كريث" ظن "إيليا" أن الرب قد
اختاره ليصبح شهيدا مثلما فعل مع كثيرين غيره . ورغم ذلك
أرسل الله غرابا - طائر نذير شوم - أطعمه حتى جف نهر
"كريث" . فلماذا غراب وليست حمامة أو ملاكا؟ ألا يمكن أن
يكون الأمر كله محض هذيان رجل يحاول إخفاء خوفه أو
هذيان رجل تعرضت رأسه طويلا للشمس؟

لم يكن "إيليا" متأكدا من أي شيء. فربما يكون الشر قد
وجد أداته وربما يكون هو تلك الأداة.

لماذا أرسله الرب إلى (أكبار) بدلا من إعادته ليضع
نهاية للأميرة التي أنزلت مثل هذا الشر بشعبه؟
شعر كما لو كان جباناً ، لكنه فعل كما أمر.

لقد صارع لينكيف مع هؤلاء الناس الغرباء الكرماء ،
وطريقتهم المختلفة تماما فى الحياة. وحينما اعتقد أنه يحقق
مسيره، مات ابن الأرملة.
... .. لماذا أنا؟!!

• • •

نهض ومشى مسافة قصيرة حتى دخل السديم الذى
يغطى قمة الجبل.

وكان يستطيع انتهاز فرصة عدم وضوح الرؤية ليفسر
من مضطهيه، ولكن ما الفائدة؟. لقد سئم الفرار، وعرف أنه
لن يجد مكانا يأويه فى هذا العالم. حتى ولو نجح فى الفرار
الآن، سيحصل اللعنة معه إلى مدينة أخرى، وستدور تراجيديات
أخرى. فإينما ذهب سيضطرب معه أشباح هؤلاء الموتى،
وفضل أن ينتزع قلبه من صدره وتقطع رأسه.

جلس ثانية بين الضباب، وقد قرر أن ينتظر برهة
ليظن من ينتظرونه بأسفل أنه وصل إلى قمة الجبل، عندئذ
يعود إلى (أكبار) ويستسلم لأسريه.

"نار السماء" سبق لها أن قتلت الكثيرين، ورغم أن
"إيليا" شك أنها كانت ترسل من قبل الله، وفى الليل إلى القمرية
يعبر وهجها السماء. وما يظهر فجأة يختفى سريعا - قد
تحرق، قد تقتل فى لحظة بلا ألم.

• • •

عندما حل المساء تثار الضباب، واستطاع رؤية
الوادي بأسفل وأضواء (أكبار) وديران معسكر الأثوريين.
وسمع نباح كلابهم وأناشيد الحرب التى يرددونها الجنود.

قال لنفسه: أنا مستعد. لقد قبلت أن أكون نبيا، وبذلت كل ما أستطيع فيما فعلته. ورغم ذلك فشلت . والآن يحتاج الرب شخصا آخر.

فى هذه اللحظة، هبط ضوء عليه... .. "نار السماء"!! توقفت النار أمامه وسمع صوتا يقول : أنا ملاك الله.

ركع "إيليا" على ركبتيه ووضع وجهه على الأرض.
قال "إيليا" دون أن يرفع رأسه: لقد رأيته فى مرات سابقة، وأطعت ملاك الله، ورغم ذلك لم أفعل شيئا، فقط رأيته سوء لأحظ فى كل مكان ذهبت إليه.

لكن الملاك تابع: عندما تعود إلى المدينة ، توسل ثلاث مرات كي تعود الحياة إلى الولد. فى المرة الثالثة سيستجيب الله لك.

قال "إيليا": لماذا أفعل هذا؟

قال الملاك: لأجل مجد الرب.

قال "إيليا": حتى لو حدث هذا، فأنا أشك فى نفسى لأننى لست أهلا لهذه المهمة.

قال الملاك: من حق كل إنسان أن يشك فى مهمته، وأن يتخلى عنها من وقت لآخر. ولكن ما لا يجب أن يفعله هو أن ينساها.

ومن لا يشك فى جدارته، لإيمانه المطلق بقدرته، يرتكب خطيئة الزهو والخيلاء.

هــركون هم الذين تمر بهم لحظات من التردد.

قال "إيليا": منذ لحظات رأيت أنني لم أكن متيقنا أنك
رسول الرب.
قال الملك: اذهب ، وأطع ما قلته لك.

* * *

بعد مرور وقت طويل ، هبط "إيليا" الجبل إلى حيث
توجد مذابح التضحية . كان الحراس فى انتظاره ، لكن
الجموع كانت قد عادت إلى (أكبار).

قال: أنا جاهز للموت، طلبت الصفح من الهة الجبل
الخامس، والآن مروا - قبل أن تفارق روحى جسدى - أن
أذهب إلى منزل الأرملة التى أوتى، وأطلب منها أن تبدى
بعض الرحمة تجاه روحى. اقتاده الجنود إلى حضرة "كبير
الكهنة"، حيث كرروا ما قاله الإسرائيلى. قال "كبير الكهنة"
للسجين: سأفعل كما طلبت. فحيث أنك سعت لمغفرة الآلهة،
يجب أن تسعى لمغفرة الأرملة. ولن تستطيع الهرب لأن أربعة
جنود مسلحين سيصحبونك.

لكن حتى لو أفنعتها بطلب الرحمة لك، فعندما يأتى
الصباح سنعدمك فى منتصف الميدان.
وتمنى "كبير الكهنة" أن يستفسر عما رآه عند قمة
الجبل، لكن فى وجود الجنود ربما تكون الإجابة مثيرة. لهذا

قرر أن يلتزم الصمت واستحسن أن يقوم "إيليا" بطلب الصفح علينا أمام العامة، فعندها لن يستطيع أى شخص آخر أن يشك فى قوة آلهة الجبل الخامس. ذهب "إيليا" والجنود إلى الشارع الضيق الفقير حيث اختبأ لعدة شهور. كانت أبواب ونوافذ منزل الأرملة مفتوحة، مما يعنى - حسب العادات - أن روح ابنها تستطيع أن ترحل لتعيش مع الآلهة. كان الجسد فى منتصف الحجرة الصغيرة ، وجميع الجيران يجلسون فى بقعة يصلون. وعندما لاحظوا وجود الإسرائيلى سيطر الرعب على الرجال والنساء وصرخوا فى الحراس: خذوه واخرجوا!! ألا يكفى ما تسبب فيه من شر؟ إنه ضال وشرير لدرجة أن آلهة الجبل الخامس رفضت أن تلوث أيديها بدمه!!

صرخ رجل: اتركوا لنا مهمة قتله! سننفذها الآن دون انتظار لطقس الإعدام!!

متماسكا فى مواجهة الدفعات واللكمات ، خلص "إيليا" نفسه من الأذى التى قبضت عليه، وجرى إلى الأرملة التى جلست تبكى فى ركن .

قال : أستطيع إعادته من الموت، دعينى ألمس ابنك للحظة مجرد لحظة.

ولم ترفع الأرملة رأسها.

قال بإصرار: من فضلك. حتى ولو كان هذا هو آخر شئ ستفعلينه من أجلى فى هذه الحياة، امنحني الفرصة لأحاول أن أجزيك على كرمك.

طوَّقه بعض الرجال ليسحبوه بعيدا. لكن "إيليا" قاوم وصارع بكل قوته، ملتصقا السماح له بملامسة الطفل الميت.

ورغم أنه كان شابا ومتشبثا بإصرار، جذب في النهاية بعيدا إلى باب المنزل.

وصرخ للسماوات: يا ملاك الله، أين أنت؟!؟

في هذه اللحظة، توقف الجميع فالأرملة قامت واتجهت نحوه، وأخذته من يديه وقادته إلى حيث تستلقي جثة ابنها، وأزاحت الوشاح الذي غطاها، وقالت: بحق دم عشيرتي الذي سيسيل على أفراد أسرتك إذا لم تحقق ما ترغب.
.. اقترِب "إيليا" ليلمس الولد.

قالت الأرملة: لحظة - سل ربك أولا أن يحقق لعنتي.
قال: لينسال دم هذا الولد على رؤوس أبى وأمى وإخوتى وأبناء وبنات إخوتى؛ إذا لم أفعل ما قلت.

عندئذ - وبرغم كل شكوكه، وبرغم ذنبه ومخاوفه:
(أخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التي كان مقيما بها وأضجعه على سريريه وصرخ إلى الرب وقال أيها الرب إلهي، أيضا إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت ببلاتتك ابنها. فتمند على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال يارب يا إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه). وللحظات طويلة لم يحدث شيء. رأى "إيليا" نفسه وقد عاد إلى جلعاد، واقفا أمام الجندي الذي يصوب سهمًا نحو قلبه، مدركا أنه في أحيان كثيرة لا شأن لمصير الإنسان بما يؤمن به أو يخافه. وشعر بالهدوء والثقة كما شعر في هذا اليوم، مدركا أنه مهما كانت النتيجة، فثمة سبب وراء حدوث كل هذا، وفوق الجبل الخامس دعا "ملاك الرب" هذا السبب بـ (عظمة الرب).

.. كان يأمل أن يأتي يوم يفهم فيه لماذا يحتاج الخالق مخلوقاته ليحقق هذه العظمة.

عندئذ فتح الولد عينيه ، وسأل : أين أمي؟
أجاب "إيليا" مبتسما: بأسفل تنتظرك.

قال الولد: رأيت حلما غريبا. كنت أسافر خلال ثقب مظلم بسرعة تفوق أسرع حصان في (أكبار)، ورأيت رجلا - أنا متأكد أنه أبي - رغم أنني لم أعرفه مطلقا. عندئذ وصلت إلى مكان جميل حيث أردت أن أمكث، لكن رجلا آخر - رجل لا أعرفه، لكنه بدا مهيبا وشجاعا جدا - طلب مني أن أرحل. وكنت أريد الاستمرار في رحلتي لكنك أيقظتني. بدا الولد حزينا، فالمكان الذي كاد أن يدخل، لا بد أنه كان جميلا.
قال الولد: لا تتركني وحيدا، لأنك من جعلني أعود من مكان كنت أشعر فيه بالحماية.

قال "إيليا" : لنهبط . أمك تريد أن تراك.
حاول الولد النهوض، لكنه كان ضعيفا ليمشي. حملته "إيليا" بين ذراعيه وهبط به.

وبدا الناس بأسفل وقد سيطر عليهم رعب شديد.
تسائل الولد: لماذا كل هؤلاء الناس هنا؟
وقبل أن يستطيع "إيليا" أن يجيب ، أخذت الأرملة الولد في حضنها وقبلته وهي تبكي.
قال الولد: ماذا فعلوا لك يا أمي، لماذا أنست حزينة

جدا؟

قالت وهي تجفف دموعها: لست حزينة. يا بنى . فلم
أكن سعيدة فى حياتى مثل الآن.
أثناء ذلك سجدت المرأة على ركبتها وقالت بصوت
عال:

"بهذا الفعل عرفت أنك من أتباع الرب! لقد تجلى
صدق الله فى كلماتك". حضنها (إيليا) وطلب منها أن تنتهض.
قالت للجنود: دعوا هذا الرجل يذهب. لقد تغلب على
الشر الذى نزل على منزلى.

اجتمع الناس على أنهم لا يستطيعون تصديق ما رأوا.
وإلى جوار الأرملة سجدت امرأة شابة فى العشرين
من عمرها ، تعمل رسامة. وواحدا تلو الآخر تلتد الآخرون
إيمانها ، ومن بينهم الجنود المكلفون باقتياد (إيليا) إلى السجن.
قال لهم (إيليا): انهضوا وابدعوا الله. فأنا مجرد واحد
من خدامه، وربما أقلهم إعدادا.

لكن الجميع ظلوا ساجدين.
وسمع صوتا يقول: لقد تحدثت مع آلهة الجبل
الخامس، والآن تستطيع أن تصنع المعجزات. .
قال (إيليا) : لم يكن هناك آلهة. فقط رأيت "ملاك الله"
الذى امرنى أن أفعل هذا.

قال شخص آخر: كنت مع بعل وبخوته.
دفع (إيليا) جانباً بعض الساجدين، ليُفسح لنفسه طريقاً،
وخرج إلى الشارع . كان قلبه ما زال يدق بسرعة شديدة، كما
لو كان أخطأ وفشل فى إنجاز المهمة التى علمه إياها الملاك.

لكن ما فائدة استعادة الحياة لميت إذا لم يؤمن الناس بمصدر هذه القوة؟

طلب منه الملاك أن ينادى باسم الله ثلاث مرات ، لكنه لم يقل له كيف يفسر هذه المعجزة للجموع فى الغرفة بأسفل .

هل يكون الأمر كما كان مع الأنبياء القدامى، هل كان كل ما رغيته أن استعرض؟ هكذا تسأل. سمع صوت ملاكه الحارس الذى تحدث معه منذ طفولته.

"نعم" أجاب (إيليا) . لكن ملائكة الله لا تتحدث مع الناس، إنهم ينقلون الأوامر التى يرسلها الرب. قال "الملاك الحارس" : استخدم القوة. لم يفهم (إيليا) المعنى المقصود، وقال : لا قوة لدى باستثناء ما يأتى من الله.

قال الملاك : لا أحد يمتلكها. لكن الجميع يستمدون القوة من الله ، ورغم ذلك لا يستخدمونها. وأضاف الملاك: من الآن، وحتى اللحظة التى ستعود فيها إلى الأرض التى طردت منها، لن تحدث أية معجزة لك.

قال (إيليا): ومتى يكون ذلك؟ قال الملاك: الله يريدك لتعيد بناء إسرائيل. سوف تطأ هذه الأرض عندما تتعلم إعادة البناء. ولم ينطق الملاك بعد ذلك بشئ.

الجزء الثانى

تلا "كبير الكهنة" الصلوات للشمس الساطعة ، متوسلاً إلى رب العاصفة وربات الحيوانات أن ترحم الحمقى. وكانوا قد أخبروه، هذا الصباح، أن "إيليا" قد أعاد ابن الأرملة من مملكة الموتى. كانت المدينة مرعوبة ومثارة. واعتقد الجميع إن الإسرائيلي قد استمد قواه من آلهة الجبل الخامس، وهكذا أصبح من الصعب التخلص منه. "لكن اللحظة المناسبة ستحين" - هكذا قال لنفسه، فالآلهة ستتتهز الفرصة للتخلص منه. أما العقاب الإلهي المقدس فله هدف آخر، ووجود الأشوريين في الوادي علامة على هذا.

... لماذا مئات السنين من السلام مهددة بالزوال؟! وكانت لديه الإجابة : بسبب اختراع الكتابة البابلية. فلقد أنشأت بلده شكلاً للكتابة يقبله الجميع ، حتى هؤلاء غير المؤهلين لاستخدامه . ويستطيع أى شخص أن يتعلمه فى وقت قصير ، وقد يعنى هذا نهاية الحضارة .

كان "كبير الكهنة" يعرف هذا ، فمن بين جميع أسلحة الدمار التى يستطيع الإنسان ابتكارها، تعتبر "الكلمة" هى الأكثر إثارة للرعب والأقوى.

فالأخناجر والرماح تترك أثارا من الدم، والسهام يمكن رؤيتها عن بعد، والسموم تكتشف فى النهاية ويتم تجنبها. أما "الكلمة" فتستطيع التدمير دون أن ترك أية أدلة. وإذا شاعت الشعائر المقدسة ، سيصبح فى إمكان الكثيرين أن يستخدموها ليحاولوا تغيير العالم ، وستصاب الآلهة بالتشوش .

وحتى تحين هذه اللحظة ، سيفرد الكهنة بمعرفة ذكرى الأسلاف وآثارهم التى سيتم تناقلها شفاهياً، شريطة أن تحفظ المعلومات فى السر.

وبدون هذا كنا سنحتاج سنوات أكثر من البحث لنتمكن من فك شفرة حروف الكتابة المصرية التى نشرها المصريون فى شتى أنحاء العالم.

وهكذا يفرد الأشخاص المدربون جيداً، النساخ والكهنة، بالقدرة على تغيير المعلومات المكتوبة .

وثمة شعوب أخرى لها أساليب منقرضة لتسجيل التاريخ، لكن هذه الأساليب معقدة للغاية لدرجة أن أى إنسان خارج المناطق المستخدمة فيها هذه الأساليب ، لا يسعى إلى تعلمها.

أما ابتكار البابلية فله سبق واحد وهو إمكانية استخدامها فى أى بلد بشكل منفصل عن اللغة المتحدث بها.

وحتى الإغريق الذين يرفضون أى شئ لم يولد فى مدنهم ، تبنوا الكتابة البابلية وتداولوها فى صفقاتهم التجارية.

ولأنهم متخصصون في تحويل كل شئ إلى حكاية ،
اطلقوا على ابتكار البابلية اسماً يونانياً هو: "حروف الهجاء -
الفابيت".

وأصبحت الأسرار المحمية طوال قرون من
الحضارة، مهددة بالتعرض إلى النور ولخطر الاقتضاح.
ومقارنة بهذا، يصبح انتهاك (إيليا) لقداسة الموت،
بإعادته شخصاً ما من الضفة الأخرى لنهر الموت، حسيماً كان
يقول المصريون، لا يعنى شيئاً. "فنحن نعاقب لأننا لم نعد
قادرين على حماية ما هو مقدس" هكذا فكر "كبير الكهنة".
فالآشوريون عند أبوابنا، وسيعبرون الوادي ويندمرون حضارة
أسلافنا ويتخلصون من مشروع الكتابة هذا.
وأنرك "كبير الكهنة" أن وجود العدو ليس مجرد
مصادفة وإنما ثمن يجب دفعه. لقد خططت الآلهة لكل شئ
بحرص بالغ، وهكذا لن يلاحظ أحد أنهم مسئولون. وهكذا
وضعوا على رأس السلطة حاكماً يهتم بالتجارة أكثر من
الجيش، وأيقظوا جشع الآشوريين ، وجعلوا الأمطار أكثر
ندرة، وجلبوا كافرين ليقسم المدينة.
... قريباً ستتدلع المعركة النهائية .

وستبقى "أكبار" بعد كل هذا ، لكن الخطر الذى كانت تشكله حروف الكتابة البابلية سيزول عن وجه الأرض للأبد.
 بعناية نظف كبير الكهنة الحجر الذى يشير إلى بقعة منذ أجيال عديدة، وطأها الحاج الأجنبى فى المكان الذى حدثت له السماء، ووجد بعدها المدينة .
 "كم جميل هذا" هكذا فكر كبير الكهنة.

.. كانت الأحجار صورة لالهة: صلبة مقاومة ..
 قادرة على النجاة تحت كل الظروف، ولا تحتاج تفسير: لماذا كانت موجودة هناك.
 وتنتقل التقاليد الشفاهية أن مركز العالم يشير إليه حجر، وفى طفولته فكر كبير الكهنة أن يبحث عن موقع هذا الحجر .

احتضن الفكرة ونمت بداخله حتى هذه السنة، لكنه عندما رأى الاشوريين فى أعماق الوادى؛ أدرك أنه لن يحقق حلمه أبدا.

وليس هذا بالأمر المهم. لقد وقع على عاتق جيلى أن
يَقَامُوا كتحضية للآلهة الغاضبة لانتهاك قداساتها.
ثمة أشياء فى تاريخ العالم لا يمكن تجنبها، ويجب أن
تقبلها. قطع على نفسه وعداً بأن يطيع الآلهة، ولن يبذل أية
محاولة لإيقاف الحرب. ربما نكون قد وصلنا للنهاية، فليس من
وسيلة لمواجهة الأزمات التى تتفاقم مع كل لحظة تمر.
حمل كبير الكهنة صولجانه وغادر المعبد الصغير.
فقد كان لديه موعد لمقابلة قائد الجيش فى "أكبار".

* * *

كان بالقرب من الحائط الجنوبي عندما لحق به "إيليا"،
وقال له : لقد أعاد الله طفلاً من الموت، المدينة تؤمن بقدرتى.
أجاب كبير الكهنة: لابد أن الولد لم يمت "سبق أن
حدث هذا، يتوقف القلب ثم يعاود الخفق ثانية". اليوم المدينة
كلها تتحدث عن هذا، وغداً سيفتكرون أن الآلهة قريبة
وتستطيع سماع ما يقولون، عندئذ سيصمتون ثانية . والآن
يجب أن أذهب، فالأشوريون يعدون للمعركة. قال (إيليا):
اسمع ما يجب أن أقوله، بعد معجزة المساء السابق غفوت
خارج الأسوار لأننى كنت بحاجة لبعض الهدوء. عندئذ ظهر
نفس الملاك الذى سبق ورأيت على الجبل الخامس، وأخبرنى
أن "أكبار" ستدمرها الحرب.

قال كبير الكهنة: المدن لا تدمر. سيعاد بناؤها سبعين
مرة وسبعاً، لأن الآلهة تعرف أين المكان الذى حددوه لها،
ولأنهم يحتاجونها هناك .

* * *

اقترب الحاكم بصحبة جماعة من حاشيته، وسأل: ماذا تقول؟

أجاب (إيليا) : قلت يجب عليك أن تسعى للسلام.
قال كبير الكهنة "بيروود": إذا كنت خائفاً ، عد إلى المكان الذى جئت منه.
قال الحاكم: إيزابيل وملكها ينتظران الأنبياء الفارين لينبأهم، لكننى أرغب أن تخبرنى كيف تسلفت الجبل الخلمس دون أن تدمرك نيران السماء.
شعر كبير الكهنة بضرورة أن يتدخل لينهى المحادثة.
فقد كان الحاكم يفكر بشأن التفاوض مع الأشوريين ، وربما يريد استخدام "إيليا" لتحقيق أهدافه.
قال كبير الكهنة: لا تنصت إليه، فعندما أحضروه إلى مجلس لأحكامه، رأيت ينتحب من الخوف.
قال إيليا: كانت دموعى بسبب الشر الذى شعرت أننى سببته لكم.

فأنا لا أخشى سوى الله ونفسى . واعلموا أننى لم أفر من إسرائيل، وأننى على استعداد للعودة بمجرد أن يأذن الله لى وسوف أضع نهاية لأميرتكم الجميلة، وسينجو إيمان إسرائيل من التهديد أيضاً.

قال كبير الكهنة "ساخرا": يجب أن يكون قلب المرء صلباً ليقاوم مفاتن إيزابيل. وبافتراض نجاح مسعاك، سنرسل امرأة أخرى ، قد تكون أجمل، كما سبق أن فعلنا قبل إيزابيل.
وكان كبير الكهنة يقول الحقيقة، فقبل مائتى عام نجحت أميرة من صيدا فى إغواء أكثر حكام إسرائيل حكمة :

"الملك سليمان"، وطلبت منه أن يبنى منحاً للإلهة "عشتار" واستجاب سليمان.

وبسبب هذا التدنيس للمقدسات ، استثار الله جيوش البلاد المجاورة، وفقد سليمان أو كاد، عرشه.

نفس الشيء سيحدث لـ "أخاب" زوج "إيزابيل" ، هكذا فكر "إيليا"، وسيعيده الله ليكمل مهمته عندما يحين الوقت. ولكن ما الفائدة من إقناع هؤلاء الرجال الذين يقفون في مواجهته؟

فهم يشبهون هؤلاء الذين رأهم ليلة أمس ساجدين في منزل الأرملة يتوسلون إلى إلهة الجبل الخامس. لن تسمح لهم عاداتهم بالتفكير بأية طريقة أخرى.

* * *

قال الحاكم : لمؤء الحظ يجب علينا أن نحترم قانون الضيافة، وبدا كما لو كان قد نسي كلمات "إيليا" عن السلام، ولولا هذا لكانا عاوناً إيزابيل في مسعاها لوضع نهاية لهؤلاء الأنبياء.

قال "إيليا" : ليس ما تزعم هو سبب الإبقاء على حياتي. فأنت تعلم أنني سلعة قيمة، وتريد أن تعطى إيزابيل متعة قتلى بيديها. ولك أن تعرف أن الناس أمس، نسبوا لى قوى خارقة ، فهم يظنون أنني قابلت الآلهة على الجبل الخامس، وبالنسبة لك لن يزجرك أن تغضب الآلهة، لكنك بالتاكيد لا رغبة عندك لإثارة سكان المدينة.

ترك الحاكم وكبير الكهنة "إيليا" يكلم نفسه ، وسارا باتجاه حوائط المدينة. عندئذ قرر كبير الكهنة أنه لا بد من أن

يقتل النبي الإسرائيلي عند أول فرصة تسنح له، فهو حتى الآن مجرد سلعة تحولت إلى شخص مزعج.

* * *

وعندما راهما يبتعدان ، فقد "إيليا" الأمل، فماذا يستطيع أن يفعل لخدمة الله؟ عندئذ بدأ الصراخ في وسط الساحة: يا أهالي أكبار، ليلة أمس تسلقت الجبل الخامس وتحدثت إلى الآلهة التي تقطن هناك، وعندما عدت نجحت في استعادة صبي من مملكة الموتى..!

اجتمع الناس حوله ، وشاعت الحكاية في جميع أرجاء المدينة.

وتوقف الحاكم وكبير الكهنة، وعادا لمشاهدة ما يحدث. كان النبي الإسرائيلي يقول بأنه قد رأى الهة الجبل الخامس تعبد إلها أعظم.

قال كبير الكهنة: سامر بقتله.

قال الحاكم: عندها سيثور الناس ضدنا، وكان كلام "إيليا" قد لاقى هوى في نفسه، من الأفضل أن ننتظر حتى يرتكب أى خطأ.

أكمل إيليا: وقبل أن أهبط الجبل ، كلفتى الآلهة بمعاونة الحاكم في مواجهة تهديد الآشوريين . أعرف أنه رجل شريف ويرغب في الإنصاف إلى. لكن الذين لهم مآرب في الحرب لن يسمحوا لى بالاقتراب منه.

قال رجل عجوز للحاكم : الإسرائيلي رجل مقدس ، فليس في إمكان أحد أن يتسلق الجبل الخامس دون أن تقتله

نيران السماء، لكن هذا الرجل فعل ذلك، والآن ها هو يُحْيى الموتى.

قال عجوز آخر: صيدا، تاير، وكل مدن فينيقيا لها تاريخ من السلام.

ولقد مررنا بتهديدات أسوأ من هذه وتغلينا عليها.
فى هذه الأثناء كان كثير من المرضى والمقعدین
يقتربون مخترقين الزحام ليمسوا ثياب إيليا ويطلبون منه شفاء
علهم.

قال كبير الكهنة: قبل أن تتصح الحاكم، إشف
المرضى، عندئذ سنصدق أن آلهة الجبل الخامس تساندك.
استدعى إيليا ما قال له الملاك ليلة أمس: ستتاح لك
تلك القوى التي تمنح للناس العاديين.
قال كبير الكهنة بإصرار: المرضى يسألون العون،
ونحن ننتظر.

قال إيليا: فى البداية يجب أن نسعى لتجنب الحرب،
وإلا سيكون هناك مزيد من المرضى، وبحزم أكثر، إذا فشلنا.
قاطع الحاكم هذه المحادثة قائلا: سيأتى "إيليا" معى،
فلقد سمع الوحي المقدس. ورغم أنه لم يؤمن بوجود أية آلهة
فوق الجبل الخامس، كان الحاكم فى حاجة لحليف يساعده
لإقناع الناس بأن السلام مع الأشوريين هو الحل الوحيد.

* * *

وهم فى طريقهم لمقابلة قائد الجيش، قال كبير الكهنة
لـ "إيليا": أنت لا تؤمن بأى شئ مما قلته توأ.

قال "إيليا": أؤمن أن السلام هو السبيل الوحيد للنجاة ،
لكننى لا أؤمن بأن الجبل الخامس تسكنه الالهة. فلقد كنت
هناك.

قال كبير الكهنة: وماذا رأيت؟

قال "إيليا": ملاك الرب. وقد رأيت هذا الملاك من قبل
فى أماكن عديدة تواجدت بها ، ولا وجود سوى لإله واحد.
ضحك كبير الكهنة وقال: هل تقصد، فى رأيك ، أن
نفس الإله الذى يرسل الرياح هو من ينبت القمح، رغم أنهما
شئان مختلفان تماما؟. سأله إيليا: هل ترى الجبل الخامس؟ من
أى جهة تنتظر إليه يبدو مختلفا رغم أنه نفس الجبل. وهذا هو
الحال مع كل الخلق، فهم وجوه عدة لنفس الإله.

وصلوا إلى أعلى الجدار، ومن هناك يستطيعون رؤية
معسكر الأعداء على مبعده منهم. فى الوادى المقفر تخطف
الخيام البيضاء النظر. وفى وقت مبكر، عندما لاحظ خفر
الحدود وجود الأشوريين عند مدخل الوادى، قال الجواسيس إن
الأشوريين فى مهمة استطلاع.

واقترح قائد الجيش أن يأخذوا هؤلاء المستطلعين
كأسرى ويبيعونهم كعبيد. بينما قرر الحاكم اتباع خطة أخرى
وهى عدم القيام بشيء، وكان يراهن على أنه عند توطيد
العلاقات معهم، قد يستطيع أن يفتح سوقا جديدا لصناعة
الزجاج فى أكار.

بالإضافة إلى أنه لو كانوا متواجدين للتجهيز لحرب،
فإنهم يعرفون أن المدن الصغيرة دائما ما تساند المنتصر، وفى

هذه الحالة تكون كل رغبة القادة الآشوريين هي المرور، دون أية مقاومة، إلى صيدا وتاير. تلك المدن التي تمتلك الثروة والمعرفة.

وعسكر الجنود عند مدخل الوادي، وشيئا فشيئا توالى وصول التعزيزات. وزعم كبير الكهنة بأنه يعلم سبب ذلك، وهو أن بالمدينة بئرا هي الوحيدة طوال سبعة أيام سفر في الصحراء. وإذا كان الآشوريون يخططون لغزو تاير وصيدا، سيحتاجون مياه هذه البئر لإمداد جيوشهم بها.

وعند نهاية الشهر الأول، كان طردهم ممكنا. وعند نهاية الشهر الثاني، كان بإمكان "أكبار" أن تكسب بسهولة، ومن ثم تفاوض على انسحاب مشرف للجنود الآشوريين.

وانتظروا أن تشتعل المعركة، لكنهم لم يبادروا بالهجوم.

وعند نهاية الشهر الخامس، كانوا قادرين على كسب المعركة، وقال الحاكم لنفسه: "سوف يهاجمون قريبا جدا، لأنهم لا بد يعانون من العطش". وطلب من قائد الجيش أن يجهز استراتيجيات دفاعية، ويأمر رجاله بالتدريب الدائم تحسبا لأي هجوم مفاجئ.

ورغم ذلك ظل تركيزه الأساسي على الترتيبات اللازمة لإحلال السلام. ومر نصف عام دون أن يتحرك الجيش الآشوري.

والآن بدأ يتلاشى التوتر الذي بلغ الذروة في أكبار خلال الأسابيع الأولى من الاحتلال الآشوري. وانشغل الناس

بأمور حياتهم، وعاد الفلاحون إلى حقولهم، والحرفيون إلى صناعة النسيج والزجاج والصابون، وداوم التجار على شراء وبيع سلعهم.

وَأَمِنَ الجميع بأن "أكبار" لن تهاجم العدو، وأن الأزمة ستفرج عن طريق المفاوضات. وكان الجميع على يقين من أن الحاكم قد اختارته الآلهة، ولهذا يتخذ أصوب القرارات دائماً. وعند وصول "إيليا" إلى المدينة، أمر الحاكم بنشر الشائعات عن اللعنة التي جاء بها الأجنبي، وهكذا إذا ما تأكد خطر الحرب يستطيع أن يلوم الأجنبي كسبب رئيسي في الكارثة.

وسيقنت سكان "أكبار" أنه بموت الإسرائيلي سيعود الكون إلى حالته الطبيعية، عندئذ يستطيع الحاكم أن يبين أنه قد فات أوان مطالبة الآشوريين بالانسحاب، وسيأمر بقتل "إيليا"، ثم يبين لشعبه أن السلام أفضل الحلول.

وحسب وجهة نظره، سيدفع التجار - الذين يرغبون في السلام - الآخرين إلى الموافقة على هذه الفكرة. وخلال هذه الشهور كان الحاكم يحارب ضغوط كبير الكهنة وقائد الجيش اللذين طالبا بالهجوم في الحال. ولم تخذله آلهة الجبل الخامس أبداً، فبعد معجزة قيام الميت ليلة أمس، أصبحت حياة إيليا أكثر أهمية من إعدامه.

• • •

سأل قائد الجيش: لماذا هذا الأجنبي بصحبته؟

أجاب الحاكم: لقد خصته الآلهة بنورها، وسوف يساعدنا على إيجاد أفضل الحلول، ثم غير الموضوع سريعا وقال: عند الخيام قد زاد اليوم.

قال قائد الجيش: وسيزداد أكثر فى الغد . ولو كنا هاجمناهم وهم مجرد حفنة جنود مستكشفين ما كانوا ليعودوا. قال الحاكم: أنت مخطئ، بعضهم كان سيفر، وكانوا سيعودون للثأر لأنفسهم.

قال قائد الجيش بإصرار: عندما نوجد جمع المحصول نتعفن الفاكهة. أما عندما نوجد حل المشكلات فإنها تتضخم . ويبين الحاكم أن السلام فخر شعبه ، عم فينيقيا لثلاثة قرون . فماذا يمكن أن تقول الأجيال التى لم تولد إذا اضطرتت لاعتراض مسيرة الرخاء؟

قال إيليا: أرسل مبعوثا للتفاوض معهم. فأعظم المحاربين هو من ينجح فى تحويل عدوه إلى صديق. قال قائد الجيش : لا نعرف بقة ماذا يريدون ، ولا نعرف هل يرغبون فى غزو مدينتنا . فكيف تستطيع التفاوض؟

قال إيليا: ثمة علامات تهديد، فلا يوجد جيش يهدر وقته فى تدريبات عسكرية بعيدا هكذا عن بلده. وكلما رأى الحاكم توافد مزيد من الجنود الآشوريين ، كان يفكر فى كمية الماء اللازمة لهؤلاء الرجال. وعما قريب ستقف المدينة بكاملها بلا حول أو قوة أمام جيش العدو.

سأل كبير الكهنة قائد الجيش: هل نستطيع الهجوم

الآن؟

قال قائد الجيش: نعم نستطيع . سنفقد كثيراً من الرجال، لأجل حماية المدينة. لكننا يجب أن نقرر سريعاً. قال الحاكم: لا يجب علينا ذلك.

قال إيليا: آلهة الجبل الخامس أخبرتنى أنه ما زال أمامنا وقت كافٍ للوصول إلى حل سلمي.

وبعد سماعه للحوار بين كبير الكهنة والإسرائيلي، ادعى الحاكم أنه موافق على الحل السلمي . فبالنسبة له لا فرق يذكر بين أن تخضع صيدا وتاير لحكم الفينيقيين أو الكنعانيين أو الآشوريين ، كل ما يهمه أن تستمر المدينة فى المتاجرة بمنتجاتها.

قال كبير الكهنة: يجب أن نهجم.

قال الحاكم: لننتظر يوماً آخر ، فربما تتحل الأمور من تلقاء نفسها. ويجب عليه أن يقرر فى الحال أى الوسائل أفضل لمواجهة تهديد الآشوريين. هبط الحاكم من فوق الجدار، واتجه إلى القصر سائلاً الإسرائيلي أن يرافقه. وفى الطريق تابع الناس من حوله : الرعاة يأخذون قطعانهم إلى الجبال، والمزارعون يذهبون إلى الحقول محاولين انتزاع الغذاء لهم ولعائلاتهم من هذه التربة المجدبة.

وكان الجنود يتدربون برماحهم، وبعض التجار الوافدين جديداً يعرضون بضائعهم فى الساحة.

ومما يثير الدهشة أن الآشوريين لم يغلقوا الطريق الذى يقطع الوادى من أحد طرفيه للآخر ، وكان النجار يمشون ببضائعهم ويدفعون الرسوم المفروضة على المرور .
سأل إيليا: لماذا لا يغلقون الطريق طالما هم يمتلكون مثل هذه القوة؟

قال الحاكم: الإمبراطورية الآشورية تحتاج المنتجات التى تصل فى سفن صيدا وتاير . وإذا ما تعرض حكام المدينتين للتهديد، سيعرقلون مرور المؤن والإمدادات وستكون العواقب أوخم من الهزيمة العسكرية.

لابد من وجود طريقة لتجنب الحرب .
قال إيليا: نعم . إذا كانوا يريدون الماء؛ نستطيع أن نبيعه لهم .

لم يقل الحاكم أى شئ ، لكنه أدرك أنه يستطيع استخدام الإسرائيلى كسلاح ضد هؤلاء الذين يرغبون فى الحرب . لأنه إذا أصر كبير الكهنة على الدعوة لمحاربة الآشوريين ، فإن "إيليا" هو الوحيد القادر على مواجهته .
واقترح الحاكم على "إيليا" أن يمشيا معا ليتبدلا الحديث .

بقى كبير الكهنة فوق الجدار يتابع العدو.
 سأله القائد: ماذا فى وسع الآلهة لتصد الغزاة؟
 لقد قنمت القرابين عند الجبل الخامس وسألت الآلهة
 أن ترسل لنا زعيماً أكثر شجاعة. يجب علينا أن نتصرف مثل
 إيزابيل. يجب أن نضع نهاية للأنبياء . فمجرد إسرائيلى بسيط،
 كان محكوماً عليه بالإعدام، اليوم يستخدمه الحاكم لإقناع الناس
 بالسلام.
 نظر القائد إلى الجبل وأكمل : نستطيع أن ندبر اغتيال
 "إيليا"، ونستخدم جنودى لإزاحة الحاكم عن موقعه.
 قال كبير الكهنة: سامر يقتل إيليا. أما بالنسبة للحاكم
 فلن نستطيع أى شئ، أسلافه هم أصحاب السلطة والسلطان
 لأجيال عديدة.
 كان جده زعيماً لنا، ونقل السلطة لابنه الذى نقلها إلى
 ابنه..

قال القائد: لماذا تمنع التقاليد أن نأتى بشخص آخر
أكثر كفاءة للسلطة؟

قال كبير الكهنة: التقاليد موجودة لحفظ النظام فى
العالم، وإذا تلاعبنا بها سيختل العالم ذاته.

نظر كبير الكهنة حوله، كانت السموات والأرض
والجبال والوادي، كل شئ يقوم بما قدر له. قد تهتز الأرض،
وأحياناً - مثل الآن - تمر فترات طويلة دون أمطار، ورغم
ذلك تظل النجوم بلا اختلال فى أماكنها ولا تسقط الشمس على
رعوس الناس. وسبب هذا أن الناس تعلموا - منذ الطوفان -
أنه من المستحيل تغيير نظام الخلق.

وفى الماضى لم يكن ثمة شئ سوى الجبل الخامس.
والآلهة والناس تعيش سوياً، تتجول فى حدائق الفردوس
وتتبادل الحديث والضحك. لكن اقتربت المخلوقات الإنسانية
الخطيئة وطردهم الآلهة، ولم تجد مكاناً ترسلهم إليه، فخلقت
الأرض تحيطها الجبال، وهكذا تستطيع احتجازهم هناك،
وجعلت السماء فوقهم، لتؤكد أن الناس للأبد ستتذكر أنهم فى
مرتبة أدنى كثيراً من ساكنى الجبل الخامس.

ورغم ذلك اهتمت الآلهة بأن تترك طريقاً مفتوحاً
للعودة، إذا ما تبعه البشر سيعودون ذات يوم إلى قمة الجبل.
ولن تنسى هذه القاعدة أبداً، لأنهم كلفوا الكهنة والحكام بحفظها
حية فى عقول الناس.

ويشارك كل الناس فى نفس الاعتقاد بأن إزاحة
العائلات التى اختارتها الآلهة عن السلطة؛ سيجعل القبر هو
المصير.

والآن لا أحد يذكر لماذا هذه العائلات قد اختصرت ، رغم أنه استقر بداخلهم أنها عائلات مقدسة.

و(أكبار) موجودة منذ مئات السنين، ولم يتول شئونها سوى أسلاف هذا الحاكم. ولقد تم غزوها مرات عديدة ، وسيطر عليها الجبابرة والبربر، ويمرور الزمن رحل الغزاة أو طردوا. بعد ذلك يعود النظام القديم ويعود الناس إلى الحياة التي سبق أن عرفوها.

ولم تكن سيطرة الكهنة إلا للحفاظ على هذا النظام. فثمة قدر للعالم تحكمه القوانين . ولقد مضى عصر محاولة إدراك ماهية الآلهة. والآن يجب احترامها وتنفيذ مشيئتها، فهي متقلبة المزاج وتغضب بسهولة. فبدون الحصاد لن تخرج الأرض أية فاكهة. وإذا ما أغفلت بعض القرابين، ستصاب المدينة بأمراض خطيرة.

وإذا ما أثير غضب إله الطقس، يمكنه أن يمنع نمو القمح والإنسان. (مبارك هو الجبل الخامس) ، قالها كبير الكهنة للقائد، فمن فوق قمته تسيطر الآلهة على الوادي وتحمينا. ولا بد لديها خطة خالدة لـ (أكبار) . سيقتل الأجنبي أو يعود إلى أرضه، وسيموت الحاكم ذات يوم، وسيكون ابنه أكثر حكمة منه وعندئذ سيتلاشى كل ما عابنا اليوم منه. قال القائد: نحن في حاجة إلى حاكم جديد. فإذا ما ظللنا تحت إمرة هذا الحاكم سننمر.

وكان كبير الكهنة يعرف أن هذه رغبة الآلهة، لتضع نهاية للكتابة البابلية، لكنه لم ينطق بشئ . كان مسرورا لأن

لديه دليلا اخر بأنه دائما ما تحقق القواعد - شئنا أم أبينا - قدر الكون المحتوم.

* * *

رافق إيليا الحاكم عبر المدينة ، يشرح له خطته لتحقيق السلام، ذلك بوصفه مستشارا للحاكم.

وعندما وصلا إلى الساحة، اقترب مزيد من المرضى، لكن "إيليا" قال لهم إن آلهة الجبل الخامس حرمت عليه أن يقوم بشفاء الناس. وبنهاية فترة الظهيرة ، عاد إلى منزل الأرملة . وكان طفلها يلعب فى الشارع . شكر "إيليا" الله لأنه جعله وسيلة تتحقق بها معجزاته.. كانت الأرملة فى انتظاره لتعد له وجبة المساء. وفاجاه وجود زوجة نبذ على الطاولة.

قالت الأرملة : لقد أحضر الناس بعض الهدايا لإدخال السرور إلى قلبك ، أما أنا فأود أن تسامحنى على معاملتى الجائرة لك.

تسأل "إيليا"، دهشاً ، أى جور؟! ألا ترين أن كل شئ هو جزء مما قدره الرب.

ابتسمت الأرملة ، ولمعت عينها ، ورأى لأول مرة أنها جميلة.

.. كانت تكبره بعشر سنوات على الأقل، لكن عند هذه اللحظة شعر بتعاطف شديد معها، ولم يكن معتادا على مثل هذا الشعور. وكان ممثنا بالخوف فلقد تذكر عيسى لإيزابيل، والأمنية التى تمنهاها وهو يغادر قصر أخاب؛ بأن يتزوج امرأة من لبنان.

قالت المرأة: رغم أن حياتي بلا نفع ، فعلى الأقل لدى ابني، وسوف تبقى قصته في ذاكرة الناس لأنه عاد من مملكة الموت.

قال إيليا: حياتك ليست بلا نفع. لقد جئت إلى "أكبار" بناءً على أمر من الله ، واستضفتني . وأنا متأكد أنه إذا ما تذكر شخص ما قصة ابنك فسيذكرك كذلك.

ملأت المرأة قنحين ، وشربا نخب الطفل الذي كان يجلس، ونخب نجوم السماء.

قالت الأرملة: جئت من بلد بعيد، متبعاً علامات رب لم أعرفه لكنه أصبح الآن إلهي . وكذلك عاد ابني من أرض بعيدة ، وأصبحت لديه قصة يقصها لأحفاده، وكذلك الكهنة سيحفظون كلماته وينقلونها إلى الأجيال القادمة. ووحدها ذاكرة الكهنة هي التي تحفظ ماضي المدن : مرات احتلالها، الأرباب القادمي ، المقاتلين الذين دافعوا عن الأرض بدمائهم. ورغم أنه - الآن - استجدت وسائل لتسجيل الماضي ، ووضع سكان "أكبار" كل تقنتهم في ذاكرة كهنتهم . فالمرء يستطيع كتابة أي شيء يختاره ، لكنه لن يتذكر أشياء لم تحدث قط.

أما أنا فماذا لدى لأحكيه ؟ استطردت المرأة وهي تتأمل القدح الذي كان "إيليا" قد شربه سريعاً ، فأنا لا أتمتع بقوة أو جمال إيزابيل، وحياتي تشبه حياة الآخرين : زواج رتب له أبى وأمى عندما كنت طفلة ، مهام منزلية عندما اشتد عودي، ممارسة طقوس العبادة في الأيام المقدسة، وكان زوجي دائم الانشغال عني بأشياء أخرى، فعندما كان حياً لم

نتحدث عن أى شئ مهم، فقد كان غارقاً كلية فى تجارتها، واعتنيت بالمنزل . وبهذه الكيفية أمضينا أبهى سنوات عمرنا. وبعد موته لم يتبق لى أى شئ سوى الفقر وتربية ابنى. وعندما يصبح رجلاً سيعبر البحار، ولن يهتم بحالى أحد. ولا أشعر إزاء ذلك بالكراهة أو الاستياء . أعاد "إيليا" ملء قدحه، وكان قلبه قد بدأ يطلق بعض إشارات التنبيه ، فقد كان مستمتعاً بوجوده إلى جوار هذه المرأة.

وقد يكون الحب تجربة مخيفة أكثر من الوقوف أمام جنود أخاب، وأحدهم يصوب سهماً إلى قلبه، لأنه إذا ما أصاب السهم قلبه فسيموت وسيتولى الرب الباقي، أما إذا أصاب الحب قلبه فسوف يتحمل وحده تبعات ذلك.

"لكن تفت إلى الحب فى حياتى" ، هكذا أسر إلى نفسه، وها هو الآن أمامه، وبلا أدنى شك كان هناك ، وكل ما عليه ألا يهرب منه، كانت روحه تهمس له بأن ينسأه بأسرع ما يمكن.

وعاد عقله إلى اليوم الذى جاء فيه إلى "أكبار" بعد طرده من "كريث" . كان متعباً جداً وظماناً لدرجة أنه لا يستطيع أن يتذكر أى شئ سوى اللحظة التى أفاق فيها من الإغماء على رؤيته لقطرات الماء تسقط فوق شفتيه .

كان وجهه قريباً جداً من وجهها، أقرب مما سبق أن كان من وجه أية امرأة فى حياته كلها. ولاحظ أن لها نفس عيني إيزابيل الخضراوين ولكن ببريق مختلف. كما لو كانت تستطيع أن: تنكس أشجار الأرز والمحيط الذى طالما حلم به،

ولم يعرفه قط - كيف يمكن أن يكون!؟ - وكذلك تعكس روحها. قال لنفسه : كم سيسعدني أن أقول لها هذا، لكنني لا أعرف كيف. إن الحديث عن عشق الرب لأسهل من هذا. أخذ "إيليا" رشفة أخرى. واستشعرت أنها قد نفوحت بشئ أزعجه، ولهذا قررت أن تغير الموضوع، وسألته : هل تسلفت الجبل الخامس؟ .. أوما برأسه.

وكان تود لو سألته عما راه هناك في الأعلى ، وكيف فر من نيران السماء.

لكنه بدا غير راغب في مناقشة هذا الأمر.

همست لنفسها : أنت نبى. اقرأ ما بقلبي.

فمنذ مجيء الإسرائيلى لحياتها تغير كل شئ . حتى الفقر أصبح من اليسير تحمله . فهذا الأجنبى أحيا بداخلها شيئاً لم تشعر به من قبل: الحب. وعندما سقط ابنها مريضاً، تحدث كل الجيران في سبيل أن يبقى في بيتها. كانت تعرف أن الله بالنسبة له، أهم من أى شئ آخر موجود تحت هذه السماء. واندركت أن هذا حلم مستحيل تحقيقه ، فالرجل الموجود أمامها الآن قد يرحل في أية لحظة ليُريق دم إيزابيل ، ويعددها لن يعود أبداً ليحكى ما حدث.

ورغم كل هذا استمرت تحبه ، لأنها لأول مرة فى حياتها عرفت الحرية.

فهي تستطيع أن تحبه حتى دون أن يعرف بهذا ، وليست بحاجة لأن منحه كي تشعر بافتقاده ، لتفكر به فى كل

لحظة من اليوم، لتنتظره عند وجبة المساء ، ولتقلق من المؤامرات التي قد ينسجها بعض الناس ضد هذا الأجنبي.
هذه هي الحرية : أن تشعر بما يرغب القلب بلا أدنى تفكير في رأى الآخرين. لقد تحدث جيرانها وأصدقاءها عندما تعلق الأمر بوجود الغريب في منزلها، لكنها لم تكن بحاجة لتحدى نفسها.

شرب إيليا شربة من النبيذ، واستأنذها وذهب إلى حجرته. خرجت وشعرت بالابتهاج عندما رأت ابنها يلعب أملم المنزل، وقررت أن تذهب في جولة قصيرة.
.. كانت حرة ، لأن الحب يحرر الناس.

• • •

حلق "إيليا" في جدار حجرته لفترة طويلة . وفى النهاية قرر أن يستحضر ملاكه، فقال: روحى فى خطر. ولم يقل الملاك أى شئ.

وكان "إيليا" متشككا فى جدوى استكمال المحادثة، لكن أوان التراجع فات. فهو لا يستطيع أن يستعديه بلا سبب.
قال "إيليا": عندما أكون مع هذه المرأة أشعر أننى لست على ما يرام.

أجاب الملاك: العكس هو الصحيح. وهذا ما يزعجك لأنك لا تستطيع التوقف عن حبها.
شعر "إيليا" بالخجل، لأن الملاك يعرف ما يعمل بروحه.

قال "إيليا": الحب خطير.

قال الملك: جدا، وماذا بعد؟

وفجأة اختفى.

ولم يكن الملك يشك بأن روح "إيليا" تتعذب . نعم - فهو يعرف ماهية الحب، فلقد رأى "آخاب" ملك إسرائيل يخذل الرب لأن إيزابيل ، أميرة صيدا، احتلت قلبه. وسبق أن أخبرتنا حكايات الأقدمين بأن الملك سليمان كاد أن يفقد عرشه بسبب امرأة أجنبية ، والملك "داود" كاد أن يرسل أحد أعز أصدقائه للموت بعدما أحب زوجة هذا الصديق، وبسبب "داليل" سجن "شمشون" واقتلع الفلسطينيين عينيه.

كيف لا يعرف ما هو الحب ، والتاريخ مملوء بالأمثلة الأساسية .

وحتى إذا لم تكن ملماً بالكتاب المقدس، فلهذه الأمثال من أصدقائه وأصدقاء أصدقائه الذين قضوا ليالي طويلة في الانتظار والسهر والعذاب. وهو شخصياً إذا كانت له زوجة في إسرائيل، كان من الصعب عليه مغادرة مدينته عندما أمره الله، وربما تسبب هذا في موته.

قال في نفسه: أحارب في معركة عبثية ، فالحب سيكسب المعركة، وسوف أحبها طوال حياتي. يا الله - أعدنى لإسرائيل كي لا أقول لهذه المرأة ما أشعر به ، لأنها لا تحبني وستقول لي بأن قلبها مدفون إلى جوار جسد زوجها البطل.

فى اليوم التالى قابل "إيليا" القائد ثانوية، وعرف أن
مزيداً من الخيام الأثورية قد شيدت.

سال "إيليا" : كم عدد المقاتلين؟

قال قائد الجيش: لا أعطى أية معلومات لعدو إيزابيل.

قال "إيليا": لكننى مستشار الحاكم. لقد عيننى مساعداً
له ظهيرة أمس. وقد أعلمت بهذا. ولهذا فأنت مضطر للإجابة
عن سؤالى .

وشعر القائد برغبة ملحة فى إنهاء حياة "إيليا".

لكنه أجاب فى النهاية : المقاتلون الأثوريون ضعف
عددها، لديهم مقاتلان مقابل كل مقاتل لدينا.

وكان "إيليا" يعرف بأن العدو يحتاج إلى قوة أكبر
بكثير لينجح فى مهمته.

قال "إيليا": نحن نقترب من اللحظة المثالية لبدء
مفاوضات السلام.

وسوف يدركون أننا كرماء، وسنتوصل إلى شروط أفضل. فأى قائد يعرف أنه لكى تغزو مدينة ، تحتاج لخمسـة مهاجمين مقابل كل مدافع واحد.

قال القائد: إذا لم نهجم الآن، سيصلون لهذا العدد. قال إيليا: برغم كل خطوط إمدادهم ، سيعجزون عن توفير مياه لكل هذا العدد من الرجال، وستحين اللحظة المناسبة لنرسل رسلنا.

قال القائد: أية لحظة تعنى؟!

قال إيليا: سنترك الأشوريين حتى يزيد عددهم قليلاً. وعندما يتأزم الموقف سوف يضطرون للهجوم، لكن فى ظل نسبة (٣: ١) أو حتى (٤: ١) سيعرفون أن المعركة ستنتهى بهزيمتهم.

عندئذ يعرض رسلنا السلام والمـرور الأمن وبيع المياه. هذه خطة الحاكم. لم يقل القائد أى شئ ، وترك إيليا يرحل. وقال فى نفسه: حتى لو مات إيليا، قد يظل الحاكم مصراً على هذه الفكرة، وقرر بينه وبين نفسه أنه إذا ما وصل الموقف إلى الحد الذى يحتم عليه قتل الحاكم والانتحار بعدها، فسيفعل ، لأنه لا يرغب فى أن يشهد غضب الآلهة وانتقامها. وبرغم ذلك وتحت أى ظرف، لن يسمح بتعرض أبناء شعبه للخيانة فى مقابل المال.

• • •

بكى إيليا وهو يدعو: يا الله ، أعدنى مرة أخرى إلى أرض إسرائيل - وتكرر هذا كل ظهيرة وهو يمشى فى الوادى - ولا تترك قلبى حبيساً فى "أكبار".

وفعل مثلما اعتاد الانبياء أن يفعلوا، حسبما عرف
وهو طفل، وبدأ يضرب ظهره بالسوط كلما فكر في الأرملة.
وأصبح ظهره مثل اللحم النئى، وعانى من الحمى طوال
يومين. وعندما أفاق كان وجه المرأة أول شيء رآه. وكانت قد
دهنت جروحه بالمرهم وزيت الزيتون. ولأنه كان أضعف من
أن يهبط درج السلم! كانت تحضر الطعام إلى حجرته.

* * *

وبمجرد أن استعاد عافيته ، عاود "إيليا" التجول فى
الوادي ، وعاود دعاءه : يا الله أعننى إلى أرض إسرائيل ،
قلبي حبس فى "أكبار" لكن جسدى يستطيع استكمال الرحلة.
وظهر الملاك. لم يكن ملاك الله الذى سبق ورآه على
الجبـل. لكنه كان الملاك الذى يحرسه وكان معتادا على صوته.
قال الملاك: الله ينصت لصلوات الذين يسألون إبعاد
البغضاء عنهم، لكنه يتجاهل هؤلاء الراضين فى الفرار من
الحب.

* * *

كان ثلاثتهم يجتمعون كل ليلة على العشاء، كما وعد
الرب، ولم ينفد الدقيق من البرميل ولا الزيت من الوعاء.
ونادرا ما كانوا يتحدثون أثناء الأكل. وذات ليلة سأله
الصبي:

ماذا يكون النبى؟

قال "إيليا": إنه الشخص الذى ينصت لنفس الأصوات
التي اعتاد سماعها فى طفولته. ولا يزال يؤمن بها . وبهذه
الطريقة يستطيع معرفة أفكار الملاك.

قال الصبى: أعرف ما يتحدث عنه - فلدنى أصدق لم لا
يستطيع غيرى أن يراهم.
قال "إيليا": لا تنسهم أبداً - حتى ولو دعاهم الكبار
بالخيالات الصببانية ، لأنك بهذه الطريقة ستعرف دائماً إرادة
الرب.

قال الصبى: سأنفذ إلى المستقبل مثل العرافين
البابليين.

قال "إيليا": الأنبياء لا يعرفون المستقبل . إنهم ينقلون
الكلمات التى أوحى بها الله إليهم فى اللحظة الحالية. وهذا هو
سبب وجودى هنا. ولا أعرف متى سأعود إلى وطنى. وهو لن
يطلعنى على ذلك طالما لا ضرورة له.
أصبحت عينا المرأة حزينتين ، وقالت: نعم - سيرحل
ذات يوم.

* * *

توقف "إيليا" عن البكاء والتوسل إلى الله. لأنه قرر أن
يصطحب الأرملة وابنها معه، عندما تحين لحظة الرحيل عن
أكبار" . لكنه لن يقول أى شئ حتى يحين الوقت. فلقد استغرق
هو نفسه وقتاً طويلاً ليذكرها. وإذا رفضت سيكون أفضل.
فعندها يستطيع أن يهب نفسه كلية لطرد "إيزابيل" وإعادة بناء
إسرائيل ؛ فمثل هذه الأشياء ستشغل عقله لدرجة ستجعله لا
يفكر فى الحب.

"الله هو من يرعانى" ، قالها "إيليا" ، مستعيداً صلاة
قديمة للملك داود، "فهو يحفظ روحى ويرشدنى إلى حيث توجد

المياه، ولن يجعلنى أنسى معنى حياتى. قال هذا بكلمات خاصة
كنهاية للصلاة.

ذات ظهيرة عاد إلى البيت مبكرا عن المعتاد، ليجد
الأرملة جالسة فى مدخل البيت ، فسألها : ماذا
تفعلين؟

قالت: لا شئ.

قال لها : إذن.. تعلمى شيئا . فى هذا الوقت توقّف
كثير من الناس عن الحياة، فهم لا يغضبون، ولا يكون، فقط
ينتظرون أن يمر الوقت. لا يقبلون تحديات الحياة، وهكذا لم
تعد الحياة تتحداهم.

وها أنت الآن تمرين بنفس المخاطرة . انفعلى،
ولجهى الحياة. لكن لا تتوقفى أبدا عن الحياة.

قالت: أصبح لحياتى معنى ثان ، ونظرت لأسفل، منذ
مجيئك هنا.

* * *

لجزء من الثانية شعر أنه يستطيع أن يفتح قلبه لها
ويصارحها ، لكنه قرر ألا يخاطر. فلأبد أنها تشير إلى شئ
آخر .

قال لها: ابدأى بفعل شئ ما . قال هذا كمحاولة لتغيير
الموضوع، وبهذه الطريقة لن يكون الوقت حليفاً أو عدواً.

قالت: لكن ماذا أستطيع أن أتعلم؟

فكر "إيليا" لدقيقة ثم قال: الكتابة البابلية. ستكون مفيدة
لك إذا ما سافرت يوماً ما.

وقررت المرأة أن تهب نفسها كلية، روحاً وجسداً
للدراسة. ورغم أنها لم تفكر قط في مغادرة "أكبار" ، جعلتها
الطريقة التي يتحدث بها تظن أنه ربما يفكر في اصطحابها
معه.

ومرة أخرى شعرت أنها حرة ، واستيقظت في
الصباح وجابت شوارع المدينة وعلى شفيتها ابتسامة.

"ما زال إيليا على قيد الحياة". قال القائد لكبير الكهنة.
وبعد شهرين لن تنجح فى قتله.

قال كبير الكهنة : فى كل "أكبار" لن يقبل أى إنسان
أن ينفذ هذه المهمة، فالإسرائيلى يعتشى بالمريض ويزور
المسجون ويطعم الجائع؛ وعندما يكون ثمة نزاع بين جارين ،
يلجأ إلىه. الجميع يقبلون أحكامه لأنها عادلة.

أما الحاكم فيستخدمه لمساندته بين الناس. لكن لا
يدرك ذلك أحد.

فالتجار لا يرغبون فى الحرب. وإذا وجد الحاكم سبيلا
لإقناع الناس بأن السلام هو الحل الأمثل ، فلن تنجح أبداً فى
طردهم الأشرار.

يجب قتل "إيليا" فى الحال.

وأشار كبير الكهنة إلى الجبل الخامس، كانت قمته
مغطاة بالسحب كما هو الحال دائماً، وقال: لن تسمح الآلهة

لقوة أجنبية أن تنتهك بلدها. ستفعل شيئاً ما، وسوف نقتصر هذه الفرصة عندما تسنح.

سأله القائد: أى فرصة تعنى؟

قال كبير الكهنة: لا أعرف. لكننى سأظل يقظاً فى انتظار العلامات. وحتى ذلك الحين لا تعط أية معلومات أخرى حقيقية عن القوات الآشورية. وعندما تسأل قل: إن النسبة بين جنود الغزاة وجنودنا ما زالت (٤ : ١)، وأثناء ذلك استمر فى تدريب قواتك.

قال القائد: ولماذا يجب على القيام بذلك؟ سوف نخسر المعركة إذا وصلت النسبة إلى (٥ : ١).

قال كبير الكهنة : لن يحدث هذا ، بل سَنصِبح متساوين ، وعندما تبدأ المعركة لن نقاتل عدواً أدنى منا، ولن نوسم بأننا مثل الجبان الذى لا يؤذى سوى الضعيف - ستواجه "أكبار" خصماً فى مثل قوتها ، وستكسب المعركة بفضل اختيار قائدها للحظة الصحيحة.

ورغم ضجره بهذا اللغو الفارغ، قبل القائد العرض. وبداية من هذه اللحظة بدأ يحجب المعلومات عن الحاكم و"إيليا".

مر شهران آخران. وذات صباح بلغت نسبة الجنود
الآشوريين لجنود "أكبار" الحد المُنذر بالخطر (٥ : ١). وهذا
يعنى أنهم يستطيعون الهجوم عند أية لحظة.

ولبعض الوقت شك "إيليا" بأن القائد كان يكذب بشأن
قوات العدو، ورغم ذلك قد يكون هذا فى صالحه. فعندما تصل
النسبة للحد الحرج سيكون من السهل إقناع الناس بأن السلام
هو الحل الوحيد.

وكانت هذه هى الأفكار التى شغلته وهو متوجه إلى
الساحة منذ أسبوع، ليفض النزاعات بين سكان المدينة. وفى
العادة كانت موضوعات هذه النزاعات هى: مشاجرات بين
الجيران، عجائز يرفضون دفع ضرائبهم، تجار يشعرون بأنهم
تعرضوا للغش فى معاملاتهم التجارية.

وكان الحاكم حاضراً هناك، فقد اعتاد الظهور من
حين لآخر ليتابع عمل "إيليا".

وتلاشى الشعور بعدم الارتياح الذى تملكه النبى تجاه الحاكم. فلقد اكتشف أنه رجل حكيم ، يهتم بحل المشكلات قبل ظهورها، وذلك رغم أنه لم يكن روحانياً، وكان يخشى الموت بشدة.

وفى مناسبات عديدة كان يفرض سيادة القانون على مشاوراته مع "إيليا". بينما فى أوقات أخرى ، و"إيليا" غير موافق على أحد القرارات، كان يكتشف بمرور الوقت أن الحاكم على حق.

وأصبحت "أكبار" نموذجاً للمدينة الفينيقية الحديثة. وابتدع الحاكم نظاماً ضريبياً عادلاً، وأصلح من حالة شوارع المدينة. وكذلك فرض - بفطنة - رسوماً على السلع. وذات مرة طلب "إيليا" من الحاكم أن يمنع استهلاك الخمر والبيرة، لأن معظم الحالات التى يستدعى لفضها كانت بسبب ممارسة أشخاص مخمورين للعنف. وقال الحاكم له: إن مدينة ما تعد عظيمة عندما يسود مثل هذا النوع من التفكير.

وحسب التقاليد، تسعد الآلهة عندما يتمتع الناس أنفسهم بعد يوم من العمل، ولهذا تحمى السكارى. وبالإضافة إلى ذلك، فالمدينة مشهورة بإنتاج أجود أنواع الخمر فى العالم، وسوف يتشكك الأجانب فى الأمر إذا ما وجدوا سكان البلد لا يستهلكون ما ينتجونه من شراب.

احترم "إيليا" قرار الحاكم، ووافقه على أن الناس السعداء ينفون أكثر. وقال الحاكم لـ "إيليا" قبل أن يذهب

ليمارس مهامه: لا حاجة بك لبذل مجهود كبير ، فالمستشار يساعد الحاكم بأفكاره ولا شئ أكثر من هذا.
قال "إيليا": أفنقد وطني وأرغب في العودة. لكنني طالما أشعر أنني ذو نفع، أنسى أنني لجنبي.
وأسر لنفسه "ومن الأفضل أن اتحكم في حبي لها".

بدأت المحكمة تجتذب حضوراً كبيراً يبدى انتباهاً غير مسبوق لما يحدث. وبدأ الناس يجتمعون: بعضهم عجائز لا يستطيعون العمل في الحقول، جاءوا ليبدووا استحسنهم أو سخريتهم من قرارات "إيليا" ، وبعضهم متورط مباشرة في الموضوعات التي تناقش، إما لأنهم ضحايا أو يتوقعون الاستفادة من جلسات المحاكمة. وهناك كذلك النساء والأطفال، وهم بلا عمل يشغلهم ويحتاجون لملء أوقات فراغهم. وبدأ "إيليا" يمارس مهامه منذ الصباح، وكانت أول قضية لراعي غنم حلم بكنز مدفون بالقرب من الأهرامات في مصر، ويحتاج للمال ليسافر إلى هناك.

ولم يسبق "إيليا" أن ذهب إلى مصر، لكنه يعرف أنها بعيدة جداً، وقال إنه من الصعب أن تتوفر للمرء الوسائل اللازمة، ولكن إذا باع الراعي أغنامه ليدفع مقابل تحقيق حلمه؛ سوف يجد بالتأكيد ما رآه.

والقضية الثانية كانت لامرأة ترغب في تعلم فنون السحر الإسرائيلية، فقال "إيليا" إنه ليس معلماً، بل مجرد نبي.

وبينما كان يتدبر إحدى القضايا ليصل إلى حل فيها، وكانت تتناول فلاحاً سب زوجة رجل آخر، اندفع جندي عبر الزحام، وتوجه إلى الحاكم، وقال هذا الوافد الجديد وهو يتصيب عرقاً؛ أمسك أحد الجنود جاسوساً وأحضره إلى هنا. سرت رعدة في الجماهير، فهذه هي المرة الأولى التي سيشهدون فيها مثل هذا النوع من المحاكمات.

صرخ أحد الأشخاص: الموت ! الموت للعدو.

ووافق جميع الحضور، وصاحوا معلنين ذلك.

وفي طرفة جفن انتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة، وامتلات الساحة بالناس. وبالكاد تم الفصل في القضايا الأخرى، فمن حين لآخر كان أحدهم يقطع "إيليا" ويسأل عن الأجنبي الذي أحضروه.

وكان إيليا يقول : لا أستطيع الفصل في هذه القضية، فهي شأن من شؤون السلطة في "أكبار".

سأل رجل آخر : لأى غرض جاء الاشوريون إلى هنا؟ ألا يدركون أننا عشنا في سلام طوال أجيال عديدة؟ صرخ آخر: لماذا يريدون الاستحواذ على مياها ؟

لماذا يهددون مدينتنا؟

وطوال شهر لم يجرؤ أحد على الحديث علناً عن وجود العدو. رغم أن الجميع يرون هذا العدد المتزايد من الخيام التي تنصب بامتداد الأفق.

ورغم حديث التجار عن الحاجة إلى بدء مفاوضات السلام في الحال، رفض الناس في (أكبار) أن يصدقوا أنهم يعيشون تحت تهديد بالغزو .

ومنذ الغزو الخاطف الذى قامت به قبيلة غير مهمة،
والحرب موجودة فقط فى ذاكرة الكهنة. إنهم يتحدثون عن بلد
تدعى مصر، وعن خيولها وعجلاتها الحربية وآلهتها التى تشبه
الحيوانات.

لكن كل هذا حدث منذ زمن بعيد، ومصر لم تعد بلدا
استعماريا، وجنودها بجلودهم الداكنة ولغتهم الغريبة عادوا إلى
وطنهم.

والآن يسيطر سكان "صيدا" و"تاير" على البحار،
ويشيدون إمبراطورية جديدة حول العالم. ورغم أنهم حاولوا أن
يكونوا محاربين، فقد اكتشفوا طريقة جديدة للحرب: التجارة.

سأل الحاكم "إيليا": لماذا أنتم مضطربون؟

قال "إيليا": لأنهم يشعرون بأن شيئا ما قد تغير. وكلانا
يعرف أنه فى أية لحظة من الآن، يستطيع الآشوريون أن
يغيروا علينا .

وكلانا يعرف أن القائد قد كذب بشأن عدد قوات
العدو .

قال الحاكم: لكنه ليس بمجنون ليخبر أى شخص ،
ولابد أنه شعر بالهلع.

قال "إيليا": كل إنسان يستطيع استشعار أنه فى خطر،
وعندها يبدأ التصرف بطريقة غريبة ، لهواجس بداخله، وكأنه
يستشعر شيئا ما فى الهواء. ويحاول أن يخدع نفسه، لأنه يظن
أنه غير قادر على مواجهة الموقف. وحاولوا خداع أنفسهم
حتى الآن، لكن حانت اللحظة التى يجب عندها مواجهة

الحقيقة. عندئذ وصل كبير الكهنة وقال: لنذهب إلى القصر كى
نعقد جلسة طارئة، والقائد فى طريقه إلى هناك الآن.
همس "إيليا" للحاكم: لا تفعل ذلك. فسوف يرغمونك
على مالا ترغب.

قال كبير الكهنة بإصرار : لابد أن نذهب . لقد قبض
على جاسوس، ولهذا يجب اتخاذ بعض الإجراءات الطارئة.
غمغم "إيليا": لنعقد الجلسة بين الناس. سوف
يساعدونك لأنهم يرغبون فى السلام، رغم أنهم يطالبون
بالحرب.

قال الحاكم أمرا : أحضروا الرجل هنا! فهتفت
الجموع بابتهاج ، فهذه أول مرة يشاهدون فيها انعقاد مثل هذه
الجلسة.

قال كبير الكهنة : لا نستطيع القيام بذلك! فالأمر شديد
الحساسية، ويحتاج المرء إلى الهدوء ليتوصل إلى حل مناسب.
وافق البعض، وعارض كثيرون.

كرر الحاكم: أحضروه إلى هنا. فمحاكمته يجب أن تتم
فى هذه الساحة ، بين الناس. فنحن عملنا معا لتحويل "أكبار"
إلى مدينة متحضرة ، وسوف نتشارك فى محاكمة كل ما
يهددنا.

قابل الناس هذا القرار بالتصفيق. وظهرت مجموعة
من الجنود وهى تسحب رجلا نصف عار ومخضبا بالدماء.
ويبدو أنه قد تعرض لضرب شديد قبل إحضاره.

.. خفت كل الضجيج . وعم صمت مطبق، لدرجة
أمكن معها سماع صوت للخنازير والأطفال يلعبون فى الجانب
الأخر للساحة.

صاح الحاكم: لماذا فعلتم هذا بالأسير؟
قال أحد الحراس: لقد قاوم. وزعم أنه ليس جاسوسا.
بل أتى ليتحدث إليك. وأمر الحاكم بإحضار ثلاثة مقاعد من
قصره ، وظهر خدمه يحملون عباءة العدالة التى يرتديها دائما
عند اجتماع مجلس أكبار.

* * *

جلس كبير الكهنة والحاكم، وكان المقعد الثالث
محجوزا للقائد الذى لم يصل بعد.
قال الحاكم: بإجلال أعلن انعقاد الجلسة لمواجهة هذه
المنحة. ولتسمحوا لكبار السن بالاقتراب.
واقتربت مجموعة من الرجال العجائز، وكونت نصف
دائرة حول المقاعد وكان يطلق على هذا الوضع فى العصور
الماضية اسم : مجلس الشيوخ ، وكانت آراؤهم محل تقدير
واحترام.

اليوم ، على كل ، أصبح دور هذه المجموعة احتفاليا،
فهم موجودون ليوافقوا على ما يقرره الحاكم.
وبعد فترة قصيرة من الطقوس الشكلية ، مثل الصلاة
لالهة الجبل الخامس، وذكر أسماء عديد من الأبطال القدماء،
نادى الحاكم على الأسير ، وسأله :

ماذا تريد؟ ولم يرد الرجل وحملق فيه بطريفة غريبة
كما لو كانا ندين.

كرر الحاكم سؤاله : ماذا تريد؟

عندئذ مس كبير الكهنة نراعه ، وقال له : نحتاج
مترجما فهو لا يعرف لغتنا.

وأصدر الحاكم أمره بالبحث عن مترجم . وغادر أحد
الحراس للبحث عن تاجر يمكن أن يؤدي هذه المهمة.
ولم يأت التاجر أبدا إلى الجلسات التي عقدها إيليا، فقد
كانوا مشغولين دائما بمتابعة عملهم وإحصاء مكاسبهم.
وبينما هم ينتظرون ، همس كبير الكهنة: لقد ضربوه
لأنهم كانوا خائفين،

واسمح لى بأن أتولى الفصل فى هذه القضية، لا تقل
شيئا. فالرعب يجعل الإنسان عدوانيا، ويجب علينا أن نظهر
سلطتنا وإلا سنفقد السيطرة على الموقف.

ولم يرد الحاكم . كان خائفا هو الآخر. وتطلع إلى
عيني "إيليا" الذى لم يكن يستطيع رؤيته من حيث وقف.
ووصل التاجر، يقوده أحد الحراس بالقوة.

واشتكى من أن المحنة تهدر وقته، وأن لديه عديدا من
الشئون يجب أن يحلها . لكن كبير الكهنة نظر إليه بصرامة
أجبرته أن يلتزم الصمت ويبدأ فى ترجمة الحوار الذى سيدور.
سأل كبير الكهنة الأسير الأشورى: ماذا تريد من
وجودك هنا؟

أجاب الرجل: أنا لست جاسوسا. أنا جنرال فى الجيش. وجئت لأتحدث إليك.
وكان الجمهور صامتا، لكنه بدأ الصياح بمجرد سماعه ترجمة هذه الكلمات. ووصفوه بالكاذب ، وطلبوا معاقبته بالموت فى الحال.

طلب كبير الكهنة من الجماهير أن تلتزم الصمت ، واستدار إلى الأسير، وسأله: ماذا تريد أن تقول؟
قال الاشورى : الحاكم مشهور بأنه رجل حكيم ، ونحن لا نرغب فى تدمير المدينة ، فكل ما نسعى إليه هو "صيда" و"تاير". لكن "أكبار" تقع على الطريق وتتحكم فى الوادى، وإذا ما أجبرنا على القتال سنفقد الكثير من الرجال، ولهذا جئت أعرض التفاوض.

قال "إيليا" لنفسه: الرجل يتحدث بالحق. ولاحظ أنه محاط بمجموعة من الجنود تحجب عنه البقعة التى يجلس فيها الحاكم.

وظن مثل الجميع أن الله صنع معجزة ستنتهى هذا الموقف الخطير.

وقف كبير الكهنة وصرخ فى الناس: هل ترون ؟ إنهم يريدون تدميرنا دون مقاومة.

قال الحاكم الأسير: أكمل.

عاود كبير الكهنة تدخله وقال: حاكمنا رجل صالح، لا يرغب فى إراقة الدماء لكننا فى حالة حرب، والأسير الذى يقف أمامنا عدو .

صرخ واحد من الجمهور: إنه على صواب.
عندئذ أدرك "إيليا" خطأه. فكبير الكهنة كان يؤدي
دورا تمثيليا أمام الناس، بينما الحاكم كان يحاول بأمانة أن
يكون عادلا.

حاول "إيليا" أن يقترب، لكنه دفع للخلف، واحتجزه
أحد الجنود بذراعه قائلا: إبق هنا، فهذه فكرتك رغم كل شيء.
نظر "إيليا" وراءه فرأى القائد يبتسم.

واصل كبير الكهنة : لا يجب أن ننصت لأية
عروض، وكان حماسه يتدفق في كلماته وإيماءاته . فإذا ما
أبدينا رغبة في التفاوض فهذا يعني أننا نبدي خوفا . الناس في
"أكبار" شجعان ولديهم من الوسائل ما يمكنهم من صد أي
غزو.

قال الحاكم، مخاطبا الناس: الأسير رجل يسعى
للسلام.

قال شخص ما : التجار يبحثون عن السلام ،الكهنة
يرغبون في السلام،الحكام يقررون السلام ،أما الجيش فلا يريد
إلا الحرب.

صاح الحاكم : ألا ترى أننا نستطيع مواجهة التهديد
الإسرائيلى لعقيدتنا بدون حرب ؟نحن لم نرسل جيوشا ولا
أساطيل ، فقط أرسلنا "إيزابيل".

والآن ها هم يعبدون (يعل) دون أن نضحى بـرجل
واحد في ساحة القتال. صرخ كبير الكهنة بصوت أعلى : لم
يرسلوا امرأة جميلة ، أرسلوا محاربين والناس يطالبون بموت
الآشوري.

أمسك الحاكم ذراع كبير الكهنة وقال له : إجلس. لقد تماديت.

قال كبير الكهنة: فكرة المحاكمة العامة كانت فكرتك ، لو بالأحرى كانت للإسرائيلي الخائن الذى يبدو كما لو كان يتحكم فى أفعال حاكم "أكبار".

قال الحاكم: سوف يكون لى معه شان آخر فيما بعد. الآن يجب أن نكتشف ما يريد الآشورى . لأجيال عديدة حاول الرجال أن يفرضوا إرادتهم بالقوة، وتحدثوا عما يريدون دون أن يهتموا بما يفكر فيه الناس. وكل هذه الإمبراطوريات تحطمت . أما شعبنا فنما ونضج لأنه تعلم كيف ينصت .

وهذه هى الطريقة التى طورنا بها التجارة. الإنصات لما يرغب فيه الآخر. وبعدها نحاول أن نبذل ما فى وسعنا لإرضائه. والنتيجة دائما هى الربح. أوما برأسه كبير الكهنة ، وقال: كلمات تبدو حكيمة ، وهذا أخطر ما فى الأمر. لأنه إذا نفوحت بكلام أحقق فمن السهل إثبات خطئك . لكن ما قلته الآن يقودنا إلى فخ.

وسمع الجالسون فى الصف الأمامى هذا النقاش. وحتى هذه اللحظة كان الحاكم يأخذ برأى المجلس، وكان "لأكبار" سمعة رائعة. وأرسلت كل من "صيدا" و"تايير" بعثات لتتري كيف تدار هذه المدينة . حتى الإمبراطور سمع بمدينة "أكبار"، وبقليل من الحظ قد يقضى الحاكم آخر أيامه وزيرا فى البلاط الإمبراطورى. واليوم تعرضت سلطته لتحـد

على. وإذا لم يتخذ قرارا سيفقد احترام الناس، ولن يصبح نبي
إمكانه أن يتخذ أية قرارات مهمة ، لأن أحدا لن يطيعه .
وقال الحاكم للأسير : أكمل، متجاهلا نظرة كبير الكهنة
الغاضبة، وطلب من التاجر أن يترجم طلبه.

قال الآشوري: جئت لأعرض اتفاقا. دعنا نمر .
وسوف نتوجه إلى "صيدا" و"تاير". وعندما تهزم هذه المدن،
وهذا أمر أكيد لأن كثيرا من جنودهم على السفن مشغولون
بالتجارة، سنكون كرماء مع "أكبار" وسنبتيك حاكما.

هب كبير الكهنة واقفا وسأل: أرايت؟ إنهم يظنون أنك
حاكم يقايض على شرف "أكبار" مقابل منصب...!

بدأت الجموع تزمجر في غضب: هذا الأسير نصف
العارى المجروح يريد أن يضع القوانين ! رجل مهزوم
يعرض أن تستسلم المدينة! واندفع كثيرون لمهاجمته، وبذل
الحرس مجهودا كبيرا للحفاظ على النظام!

قال الحاكم: انتظروا. محاولا أن يعلو صوته على
الضجيج ، فإمامنا يقف رجل بلا حول أو قوة . رجل لا
يستطيع أن يثير بداخلنا أى خوف.

وفوق ذلك نعرف أن جيشنا جهز بشكل أفضل، وأن
مقاتلينا أشجع. ولا حاجة بنا لإثبات ذلك لأى شخص. وإذا ما
قررنا أن نحارب ، سنكسب المعركة. لكن الخسائر ستكون
فادحة.

أغمض "إيليا" عينيه، وصلى من أجل نجاح الحاكم فى
إقناع شعبه.

أكمل الحاكم كلامه: وحكى لنا أجدادنا عن الإمبراطورية المصرية. لكنها لم تعد موجودة. وعذنا ثانية إلى العصر الذهبي. وعاش أبائنا وأبائهم في سلام. فلماذا نكون نحن من يحطم هذا التقليد؟ ونحن نعلم أن الرخاء الحديث يتحقق من خلال التجارة وليس في ميدان المعركة. شينا فشيناء، خيم الصمت على الناس، فقد نجح الحاكم في مسعاه.

وعندما تلاشى الضجيج، التفت الحاكم إلى الأشوري وقال: ما تعرضه غير كاف. إذا أردتم عبور أرضنا؟ يجب أن تدفعوا الضرائب مثلما يفعل التجار. قال الأسير: صدقنى أيها الحاكم، لا خيار أمام "أكبار". لدينا ما يكفى من الرجال لتدمير المدينة وقتل كل سكانها. لقد عشتم طويلا فى سلام ونسيتم كيف تحاربون، بينما نحن نحتل العالم.

تعالّت الهمهمات ثانية بين حشود الناس. قال "إيليا" لنفسه: لا يستطيع الحاكم إيداء حيرته الآن، رغم أنه من الصعب عليه أن يتعامل مع الأسير الأشوري، الذى يفرض شروطه رغم أنه مأسور. وفى كل لحظة كان مزيد من الناس يتوافدون. ولاحظ "إيليا" أن التجار الذين لا يهتمون سوى بالأحداث الدائعة، تركوا أماكن عملهم لينضموا إلى الجماهير. وكانت المحاكمة قد وصلت إلى مرحلة خطيرة. فلم يكن من سبيل للترجع عن اتخاذ قرار بالتفاوض أو بإعدام الأسير.

بدأ الناس ينقسمون: البعض يدافع عن السلام، بينما آخرون يطالبون أن تواجه "أكبار" عدوها.

همس الحاكم إلى "كبير الكهنة": لقد تحداني هذا الرجل أمام الناس، وكذلك فعلت أنت.

استدار كبير الكهنة إليه وتحدث بحيث لا يستطيع أحد أن يسمعه وقال: أخبره أن يحكم على الأشرى بالموت فى الحال.

أما أنا فلا أطلب بل أمر. وهذه هى الطريقة التى تمكننى من إبقائك فى السلطة، وأستطيع أن أضع حدا لذلك عندما أرغب، هل تفهم؟

إننى أعرف ما هى القرابين التى ستمكننا من استرضاء الآلهة وتجنب غضبها وعقابها، إذا ما دفعنا لاستبدال العائلة الحاكمة، ولن تكون هذه هى المرة الأولى، فحتى فى مصر، الإمبراطورية التى استمرت لآلاف السنين، ثمة حالات عديدة من استبدال العائلات الحاكمة. ولم يتوقف الكون بل استمر فى نظامه، ولم تسقط السموات على رؤوسنا. شحب وجه الحاكم. واستمر "كبير الكهنة" فى كلامه:

وها هو قائد الجيش بين الحشود مع بعض جنوده. وإذا أصررت على التفاوض مع هذا الرجل سأخبر الجميع أن الآلهة تخلت عنك، ولذلك سوف تعزل. دعنا نستمر فى المحاكمة وامتثل لما أمرك به.

لو كان الحاكم يستطيع رؤية "إيليا"، لوجد مخرجا من هذا المازق. بإمكانه أن يطلب من النبى الإسرايلى أن يقول

إنه رأى ملاكا على الجبل الخامس كما سبق وحكى. وكذلك يستدعى حكاية قيام ابن الأرملة من الموت. عندئذ ستكون كلمه "إيليا" - الذى سبق أن أثبت أنه قادر على القيام بالمعجزات - فى مواجهة كلمة هذا الرجل "كبير الكهنة" الذى لم يسبق أن أبدى أية قوى خارقة . لكن "إيليا" تركه وحيدا ، بلا أية فرصة.

على أية حال، هذا الرجل مجرد أسير، ولم يسبق أن بدأ جيش الحرب لأنه فقد جنديا.
قال الحاكم لـ "كبير الكهنة": الآن أنت الغالب - وذات يوم سوف أتفاوض على شئ آخر فى المقابل.
هز "كبير الكهنة" رأسه إيماء بالموافقة . وصدر الحكم فى الحال.

قال الحاكم: لا يتحدى أحد "أكبار" . ولا يدخل مدينتنا أحد بدون تصريح من سكانها. وقد حاولت ذلك؛ ولهذا يحكم عليك بالموت.

وحيث كان واقفا، نظر "إيليا" إلى أسفل. وابتسم قائدا الجيش.

سار الأسير وخلفه جموع غفيرة لا مثيل لها، واقتيد إلى مكان جوار الجدران المحيطة بالمدينة. وهناك خلعت عنه آخر ملابسه وتركوه عاريا، ودفعه أحد الجنود إلى قاع حفرة، والتف الناس حول الحفرة، وتدافعوا ليروا بشكل أفضل. "يرتدى الجندي زيه بفخر، ويجعل نفسه مرئيا للعدو؛ لأن لديه الشجاعة الكافية لذلك، ويرتدى الجاسوس ملابس النساء لأنه جبان".

بهذا الكلام صرخ الحاكم ليسمعه الجميع. وأضاف: ولهذا حكمت عليك أن تغادر هذه الحياة مجردا من الزهو الذي يشعر به كل شجاع.

توجهت الجموع إلى السجين بالسخرية والتهكم، وصفقت مستحسنة كلام الحاكم. وقال السجين شيئا ما، لكن المترجم لم يعد موجودا ولهذا لم يفهم كلامه أحد. نجح "إيليا" في اختراق الصفوف ليصل إلى الحاكم، ولكن بعد فوات الأوان، فعندما لمس عبايته، دفع بعنف.

قال الحاكم: الخطأ خطوك . فحتى لو انعقد مجلس "أكبار" فى السر ، كان قائد الجيش وكبير الكهنة سيفرضان إرادتهما. لقد أحاطنى الجنود طوال المحاكمة . فهما خططا لكل شئ.

قال "كبير الكهنة" : نقضى التقاليد بأن اختيار مدة التعذيب هى مسؤولية كبير الكهنة. انحنى والنظت حجرا ناوله للحاكم . ولم يكن الحجر كبيرا ليقتل سريعا، ولا صغيرا للحد الذى يجعل العذاب محتملا فترة طويلة .

صاح الرجل: المجد لأشوريا. فى هذه اللحظة انظر إلى صورة شعبى وأموت وأنا فى غاية البهجة، لأننى أموت كقائد حاول حماية مقاتليه والحفاظ على حياتهم. سوف أذهب لرفقة الآلهة وأنا راض لأننى أعرف أننا سنحتل هذه الأرض.

قال كبير الكهنة: أرايت؟ لقد سمع وفهم كل شئ قيل أثناء المحاكمة ووافق الحاكم. فالرجل تحدث بلغتهم ، وهذا يعنى أنه عرف بالانقسامات فى مجلس "أكبار".

وأكمل الرجل: أنا لست فى الجحيم، لأن رؤية بلدى تمنحنى العظمة والقوة. رؤية بلدى تجعلنى سعيدا. وصاح ثانية: المجد لأشوريا.

وبعد أن تجاوزا دهشتهما، عاودت الجموع كذف الأحجار، وأبقى الرجل زراعيه إلى جانبيه ، بلا محاولة للمقاومة. فلقد كان محاربا شجاعا.

وبعد بضعة ثوان تجلت رحمة الآلهة واصطدم حجر بمقدمة رأسه، ففقد الوعى وسقط على الأرض.

قال كبير الكهنة: نستطيع أن نذهب الآن. وسوف يكمل أهل "أكبار" هذه الشعيرة حتى النهاية.

• • •

لم يرجع "إيليا" إلى بيت الأرملة. وسار في الصحراء لا يعرف تحديدا إلى أين يريد الذهاب. وقال للنباتات وللصخور: "لم يفعل الله أى شئ، رغم أنه كان يستطيع أن يفعل شيئا ما".

وندم على قراره ولام نفسه لموت رجل آخر. فلو قبل فكرة انعقاد مجلس "أكبار" فى السر، كان الحاكم سيتمكن من اصطحابه معه، وعندئذ كانا سيواجهان - معا - كبير الكهنة وقائد الجيش.

ورغم أن الفرص المتاحة أمامهما فى هذه الحالة ستكون محدودة، فهي أفضل من المحاكمة العلنية .

وأسوأ شئ أنه قد تأثر بالطريقة التي استدعى بها كبير الكهنة الجماهير، رغم أنه لم يوافق على ما قاله ، لكنه كان مجبرا على الانتباه لضرورة وجود رجل لديه فهم عميق بفكرة القيادة. وسحاول أن يتذكر كل تفصيلة راها، تحسبا ليوم لا بد أت فى إسرائيل. سيضطر فيه لمواجهة الملك والأميرة القادمة من صيدا.

تجول "إيليا" بلا هدف ناظرا إلى الجبال والمدينة ومعسكر الآشوريين الذى يظهر عن بعد. وشعر أنه مجرد نقطة فى هذا الوادى، وأن ثمة عالما كثيفا يحيط به. عالم شديد الاتساع لن يستطيع بلوغ آخره حتى ولو ارتحل طوال حياته.

وقد يكون أصدقاؤه وأعداؤه توصلوا لفهم أفضل
للأرض حيث يعيشون، وقد يسافرون إلى بلاد بعيدة، ويجرون
فى بحار مجهولة ويعشقون النساء بلا شعور بالذنب. ولن
يوجد بينهم من يسمع ملائكة طفولته ، أو يزجون بأنفسهم فى
صراع مع الله.

إنهم يعيشون خارج حيواتهم فى اللحظة الراهنة،
ويشعرون بالسعادة وهو أيضا مجرد شخص مثل الآخرين.
وفى هذه اللحظة التى يسير فيها عبر الوادى تمنى لو لم يكن
سمع صوت الله أو ملائكته.

لكن ليس بالرغبات تكون الحياة. وإنما بأفعال كل
شخص.

وتذكر أنه لمرات عديدة فى الماضى حاول التراجع
عن مهمته، لكنه ما زال هناك فى منتصف هذا الوادى، لأن
هذا ما طلبه الرب.

.. مجرد نجار كنت ، أه يا الله، وأستطيع أن أكون
نافعا للعمل.

ورغم ذلك وقف إيليا هناك، ساعيا لتنفيذ ما طلب منه.
حاملا بداخله ثقل الحرب التى لا بد تقع ، ومنبحة الأنبياء التى
اقتربت إيزابيل، والموت رجما للقاتل الأثورى ، وخوفه من
عشق امرأة من "الكبار".

لقد وهب الله هبة لا يعرف ماذا يفعل بها.

وفى وسط الوادى لاح ضوء. لم يكن لملاكه الحارس
الذى سمعه ولم يره . لقد كان ملاك الله، جاء ليقدم له
المشورة.

قال إيليا: لا حيلة لى هنا بعد الآن. فمضى أعود إلى
إسرائيل؟
أجابته الملاك: عندما تتعلم كيف تعيد البناء.
لكن عليك أن تتذكر ما علمه الرب لموسى قبل
المعركة.
استغل كل لحظة حتى لا تتدمر بعد ذلك، وتنتحب
اضياح الشباب. فلكل فترة فى حياة الإنسان هواجسها التى يبثها
الله داخله.

وقال الرب لموسى:

"ويقول لهم اسمع يا إسرائيل. أنتم قريبتم اليوم من الحرب على أعدائكم. لا تضعف قلوبكم . لا تخافوا ولا ترتعدوا ولا ترهبوا وجوههم. لأن الرب إلهكم سائر معكم لكى يحارب عنكم أعداءكم ليخلصكم . ثم يخاطب العرفاء الشعب قائلين من هو الرجل الذى بنى بيتا جديدا ولم يدشنه . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب ويدشنه رجل آخر. ومن هو الرجل الذى غرس كرما ولم يبتكره . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيبتكره رجل آخر".

أكمل "إيليا" سيره لبعض الوقت ساعيا لاكتشاف ما يساعده على فهم ما سمعه. وبينما كان يتأهب للعودة إلى "أكبار"، رأى المرأة التي أحبها تجلس على صخرة في مواجهة الجبل الخامس، وتبعد عن المكان حيث يقف، مسيرة بضعة دقائق.

تساءل: ما الذى تفعله هنا؟ هل تعرف بأمر المحاكمة وقرار الموت والمخاطر التي سنواجهها؟
شعر أنه يجب أن ينبهها في الحال . وقرر الاقترب منها.

لاحظت وجوده ولوحت له.
بدا "إيليا" كما لو كان قد نسي كلمات الملاك، وعادوه الشعور بعدم اليقين.
حاول التظاهر بأنه كان قلقا بسبب مشاكل المدينة، حتى لا تترك التشوش الذى أصاب قلبه وعقله.
وعندما دنا منها سألها: ماذا تفعلين هنا؟

قالت: جئت بحثا عن بعض الإلهام . فالكتابة التى أعطى لها جعلتني أفكر فيمن ابتدع الوديان والجبال ومدينة "أكبار". وأعطاني بعض التجار أخبارا بكل لون ، لأنهم أرادوا أن أكتب لهم بعض الأشياء . وفكرت أن أستخدم هذه الأخبار الملونة في وصف العالم الذى أعيش فيه، لكنني أعرف صعوبة تحقيق هذا الطموح. فرغم أن الألوان معي، الله - فقط - يستطيع مزجها بمثل هذا التناغم. ظلت محدقة في الجبل الخامس . ويدت شخصا مختلفا تماما عن المرأة التي قابلتها منذ بضعة شهور تجمع الأخشاب عند بوابة المدينة. وشعر أن وجودها بمفردها وسط الصحراء قد بث الثقة والاحترام بداخله.

تساءل "إيليا" : لماذا كل الجبال لها أسماء ما عدا الجبل الخامس يشار إليه برقم؟ أجابت : حتى لا يتسبب ذلك في صراع بين الآلهة. فحسب تقاليدنا ، إذا أعطى الناس اسم أحد الآلهة لهذا الجبل، سوف تغضب الآلهة الأخرى وتدمر الأرض. ولهذا أطلق عليه "الجبل الخامس" لأنه الجبل رقم خمسة الذي نراه خلف الجدران المحيطة بالمدينة. وبهذه الطريقة لم نغضب أحدا، وحافظنا على سلامة الكون. لبعض الوقت لم ينطقا بشئ. وكسرت المرأة هذا الصمت بقولها:

وبالإضافة إلى تأمل مسألة الألوان هذه، فكرت في الخطورة التي ستتسبب فيها الكتابة البابلية. فقد تغضب الآلهة الغينيق ، والله إلها.

قاطعها "إيليا" قائلا: فقط الله هو الموجود. وكل دولة متحضرة لها نظام كتابة خاص بها. أكملت المرأة: لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا. فعندما كنت طفلة اعتدت الذهاب إلى الساحة لمشاهدة "الخطاط" وهو يعمل لدى التجار وكانت خطوطه ورسوماته مؤسسة على خطوط الكتابة الفرعونية وما تتطلبه من مهارة ومعرفة . والآن - مصر القوية والقديمة في تدهور، بلا مال لشراء أى شئ، ولم يعد هناك من يستخدم لغتها بعد الآن، خاصة بعدما نشر البحارة من "صيدا وتاير" الكتابة البابلية في كل أنحاء العالم.

وهكذا أصبح من الممكن تدوين الكلمات والشعائر المقدسة على ألواح من الطين، ونقلها من شعب لآخر. فماذا سيحدث للعالم إذا استغل ناس، بلا ضمير أو مبادئ، هذه الشعائر لإثارة الاضطرابات في الكون؟ فهم "إيليا" ما كانت تقوله المرأة.

كانت الكتابة البابلية قد تأسست على نظام غاية في البساطة، فـ "الرسومات / الحروف" الفرعونية تحول في البداية إلى أصوات، ثم يصمم حروف مقابل كل صوت. ويوضع هذه الحروف في نظام معين ، من الممكن ابتداء كل الأصوات الممكنة، وكذلك وصف كل شئ موجود في هذا الكون . وكانت بعض هذه الأصوات عvisة على النطق. وتوصل الإغريق إلى حل لهذه المشكلة ، بإضافة خمسة حروف أخرى تعرف "بالحروف المتحركة" إلى الحروف

العشرين للكتابة البابلية وأطلقوا على هذا الابتكار اسم (حروف الهجاء) والآن يستخدم هذا الاسم لتعريف نوع جديد من الكتابة.

وسهل ذلك كثيرا من التبادل التجارى بين مختلف الشعوب.

وكان نظام الكتابة المصرى يتطلب فراغا أكبر، وقدرة على رسم الأفكار، بالإضافة إلى فهم عميق للتمكن من تفسيرها. ورغم فرض هذا النظام على الشعوب التى استعمرتها مصر، لم يحمها هذا من التدهور والاضمحلال. أما نظام الكتابة البابلى، فقد انتشر سريعا فى أنحاء العالم لأنه اعتمد على القوة الاقتصادية للفينيق الذين أخذوا به وتعلموه.

ونظام الكتابة البابلى، مع التعديل الإغريقى له، أسعد التجار فى شتى الأمم لأنهم، من قديم، من يقررون ما يبقى فى التاريخ وما يجب أن يختفى مع موت الملك أو الشخص الذى جاء به وقدمه.

وهكذا اتضح أن الابتكار الفينيقي كان مقدرًا له أن يصبح لغة التجارة، ليحفظ تجار فينيقيا وملوكها وأميراتها الفاتنات وصانعي النبيذ وسادة صناعات الزجاج.

سألت المرأة: هل سيغيب الرب عن هذه الكلمات؟ قال "إيليا": سيدوم فيها. لكن سيصبح كل شخص مسئولا أمامه عما يكتب.

أخرجت من طيات ثوبها لوحا طينيا مكتوب عليه شئ ما.

سأل إيليا : ماذا يعنى هذا؟

قالت: الكلمة هى "الحب".

أخذ "إيليا" اللوح بين يديه دون أن يجرو على سؤالها لماذا أعطته له .

وعلى قطعة الطين هذه بعض الخريشات تلخص لماذا النجوم معلقة فى السماء ، ولماذا يمشى الإنسان على الأرض. حاول أن يعيده إليها، لكنها رفضت.

قالت: كتبته لأجلك ، رغم أننى أعرف مهمتك ، وأعرف أنك ذات يوم ستضطر للرحيل، وأنت ستصبح عدوا لبلدى لأنك ستسعى للقضاء على إيزابيل.

وفى هذا اليوم، ربما أكون إلى جانبك وأدعمك فى تنفيذ مهمتك، أو أكون مع الذين يحاربونك ، لأن إيزابيل تنتمى إلى بلدى.

وهذه الكلمة التى تحملها بين يديك مملوءة بالغموض ، لا يعرف أحد ما الذى توقظه فى قلب امرأة ، ولا حتى الأنبياء الذين يتحدثون إلى الرب يستطيعون ذلك.

قال "إيليا": أعرف الكلمة التى كتبتها، ووضع اللوح بين طيات عبايته وأكمل - لقد صارعتها ليل نهار. ورغم أننى لا أعرف ما الذى توقظه فى قلب امرأة، فأبني أعرف ما تستطيع فعله برجل.

.. لدى الشجاعة لمواجهة ملك إسرائيل، وأميرة صيدا، ومجلس "أكبار". لكن هذه الكلمة "الحب" ، تبث الرعب بداخلى.

وقبل أن تكتبيها على لوحك، رأتها عينك مكتوبة فى قلبى . وصمتا.

موت الرجل الأشورى، مناخ القلق الذى خيم على المدينة، ونداء الرب الذى قد يأتى فى أية لحظة، جميعها ليست فى قوة الكلمة التى كتبتها. ومد "إيليا" يده فضمته المرأة بين يديها. وبقياً على هذا الحال حتى اختفت الشمس خلف الجبل الخامس.

وفى طريق العودة قالت له : أشكرك . منذ وقت طويل وىى رغبة فى قضاء ساعات غروب الشمس معك. عند وصولهما إلى البيت وجدا رسولا من عند الحاكم فى انتظاره، وطلب من "إيليا" أن يأتى معه فى الحال لمقابلة الحاكم.

* * *

قال الحاكم لإيليا: قابلت مساننتى لك بالجبن والتخاذل، فماذا يجب أن أفعل بحياتك؟ قال إيليا: لن أحيأ ثانية واحدة أطول من إرادة الله. هو من يقدر وليس أنت.

دهش الحاكم لشجاعة "إيليا" وقال : أستطيع أن أمر بقطع عنقك فى الحال ، أو أسطك عبر شوارع المدينة زاعما أنك جلبت لعنة على شعبنا، وهذا لن يكون قرار إلهك الواحد. قال "إيليا" : مهما كان مصيرى، لابد سيحدث لى. لكن كل ما أريغه أن تعرف أننى لم أفر، جنود قائد الجيش منعونى من الوصول إليك، فالقائد يريد الحرب وسيفعل أى شئ للوصول إلى هدفه.

قرر الحاكم ألا يهدر مزيدا من الوقت فى هذا النقاش العشوائى .

فقد كان عليه أن يشرح خطته للنبي الإسرائيلى . وقال له : لا يرغب القائد فى الحرب، فهو كرجل عسكرى محنك يعرف أن جيشه أقل عددا وخبرة، ولهذا سيسحقه جيش العدو . وكرجل شريف يعرف أنه إذا خاطر سيجلب العار على أحفاده . لكن قلبه تحول إلى حجر بسبب الشعور بالعظمة والقداسة .

لقد ظن أن العدو خائف، ولم يدرك أن المحاربين الآشوريين مدربون جيدا، فهم عند الالتحاق بالجيش يزرعون شجرة، وكل يوم يقفزون فوق البقعة التى دفنوا البذور فيها ، ويصبح البرعم نباتا، ويستمررون فى القفز لا يضجرون من هذا أو يشعرون بأنهم يهدرون وقتهم .

وشينا فشيئا تنمو الشجرة، ويقفز الجنود لأعلى . وهكذا يدربون بصبر وتغان، على تجاوز العقبات والسدود .

لقد اعتادوا التعرف على التحدى عندما يرونه . وهم الآن يراقبوننا منذ شهور .

قاطع "إيليا" الحاكم قائلا: حينئذ من تظنه يهتم بنشوب الحرب؟

قال الحاكم: إنه كبير الكهنة . رأيت ذلك طوال محاكمة الأسير الآشورى .

قال "إيليا": وما دافعه؟

قال الحاكم: لا أعرف . لكن لديه من الدهاء ما يمكنه من إقناع القائد والناس .

والآن المدينة كلها فى صفه ، ولا أرى سوى مخرج
وحيد للموقف العصيب الذى وجدنا أنفسنا به. وصمت لحظة،
مصمت ثقيلة ، ثم نظر مباشرة فى عيني الإسرائيلي ، وقال :
أنت.

وبدأ الحاكم يروح ويجئ فى الحجرة ، كشف حديثه
المتعجل أنه متوتر .

وأكمل: التجار أيضا يرغبون فى السلام، لكنهم لا
يستطيعون فعل أى شئ وعلى أية حال، هم أغنياء ويستطيعون
الرحيل إلى مدينة أخرى ليستوطنوها أو ينتظرون حتى يشتري
الغزاة بضائعهم. وبقية الناس فقدوا القدرة على التمييز ،
ويطالبوننا بمهاجمة عدو متفوق علينا تماما. ولا شئ يستطيع
التأثير فيهم وتغيير تفكيرهم. سوى معجزة .

قال "إيليا" وقد اعتراه التوتر: معجزة؟

قال الحاكم: سبق وأعدت للحياة طفلا بعد موته،
وساعدت الناس ليهتوا إلى سبلهم، وأصبحت محبوبا من
غالبية الشعب رغم أنك أجنبي .

قال "إيليا": كان ذلك هو الحال حتى هذا الصباح، لكنه
تغير الآن. ففي المناخ الذى وصفته توا ، سيعتبر أى مدافع
عن السلام خائنا.

قال الحاكم: لا أريدك مدافعا عن أى شئ. أريد منك
القيام بمعجزة عظيمة مثل إعادة هذا الصبى للحياة. عندئذ
سنقول للناس إن السلام هو الحل الوحيد، وسينصتون إليك،
وسيفقد كبير الكهنة كل ما لديه من قوة وسلطة.

ساد الصمت للحظة ، أكمل الحاكم بعدها: أنتوى إقامة
مواجهة، فإذا نفذت ما أطلبه منك؛ ستفرض عقيدة الإله الواحد
على الناس فى " أكبار " . وستسعد بذلك الإله الذى تسعى
لخدمته، وسأصبح عندها قادرا على التفاوض من أجل السلام.

* * *

تسلق "إيليا" درجات السلم الخشبى المؤدى إلى غرفته
فى العلية بمنزل الأرملة . وفى هذه الاونة كانت لديه فرصة لم
تسمح لئبى قبل ذلك قط، فرصة لتحويل مدينة فينيقيا لعبادة الإله
الواحد. وهذه هى الطريقة الأكثر إيلاما لإيزابيل ، عندما
تكتشف أنه لا بد من مقابل لما اقترفته فى مدينته .

استناره العرض الذى قدمه الحاكم له ، لدرجة أنه فكو
فى إيقاف المرأة النائمة بأسفل ، لكنه غير رأيه، فلا بد هى نائمة
تحلم بالظهيره التى قضياها معا.

نادى على ملاكه الحارس، فظهر له.

قال "إيليا": سمعت عرض الحاكم. إنها فرصة فريدة.

قال الملاك: ليست فريدة ، الله يمنح الإنسان فرصا
عديدة. ولا تنس ما قاله: "أن تكون ثمة معجزة أخرى حتى
تعود إلى وطنك".

نكس "إيليا" رأسه. وفى هذه اللحظة ظهر ملاك الله
وغطى وجوده على وجود ملاك إيليا الحارس، وقال ملاك الله:
انظر هذه معجزات ستأتى. سوف تجمع الناس معا عند الجبل.
وفى ناحية سوف تأمر ببناء مذبح لـ بعل، ويدفع بثور إليه.
وفى الناحية الأخرى سوف تبنى مذبحا لله، ويدفع بثور اخر

إليه. وسوف تقول لعبدة بعل ادعوا باسم الهنكم وأنا أدعو باسم الرب. ودعهم يبدأون. وليقضوا من الصباح حتى الظهيرة يدعون بعل ليهيط ويحصل على ما قدموه له. وسوف يصيحون وينتحبون ويقطعون أجسادهم، ويتوسلون لى تأخذ الهتهم الثور قربانهم، ولن يحدث شئ. وعندما يصيبهم الإرهاق والسام، سوف تملأ جرارا أربعا بالماء وتصبها على الثور، وسوف تكرر ذلك مرة ثانية وثالثة، وعندها ستدعو إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل وتساله أن يظهر قوته للجميع. وفى هذه اللحظة سيرسل الله نارا من الجنة ويأخذ القربان".

سجد "إيليا" شكرا وامتنانا.

وبعدها أكمل الملاك : " وهذه المعجزة لا تحدث سوى مرة واحدة فى العمر. ولك أن تختار، إما تتحقق هنا لتجنب المعركة، أو فى الوطن لتحرر الناس من إيزابيل".
ورحل ملاك الله.

* * *

استيقظت المرأة مبكرا ورأت "إيليا" جالسا فى مدخل المنزل.

كانت عيناه غائرتين فى محجريهما، مثل عيني من لم يغمض له جفن. وبت لو سألته عما حدث فى الليلة السابقة ، لكنها خشيت رد فعله. قد تكون محادثته مع الحاكم وخطر الحرب الداهم سببا فى مفاجأة النوم له طوال ليلة أمس. وقد يكون ثمة سبب آخر. ربما اللوح الطينى الذى أعطته إياه. وإذا

صح تخمينها هذا وطرحت الموضوع، فربما يفاجئها بقوله إن حب امرأة لا يتفق مع تدبير الرب.

ولم تتطرق سوى بهذه الكلمات: "تعال"، وكل شيئا.
استيقظ ابنها كذلك. وجلس ثلاثتهم إلى الطاولة لياكلوا.
قال "إيليا": كم رغبت أن أجلس معك البارحة، لكن الحاكم احتاجني.

قالت: لا تورط نفسك معه، وعاونت المسكينة قلبها،
فأسرته حكمت "أكبار" لأجيال، وسيعرف كيف يواجه الخطر.
قال "إيليا": وتحدثت كذلك إلى الملاك. وطلب منى
اتخاذ قرار صعب.

قالت "المرأة": لا تشغل نفسك بالملائكة، ربما من
الأفضل لك أن تصدق أن الالهة تتغير مع الزمن. لقد عبد
أسلافى الالهة المصرية وكانت لها هيئة الحيوانات، ثم ذهبت
هذه الالهة.

وإلى وقت وصولك كنت أقدم القرابين إلى عشتار
وبعل وكل ساكنى الجبل الخامس. والآن عرفت الله، لكنه هو
الآخر قد يغادرنا ذات يوم، وقد تكون الالهة التالية له أقل فنى
طلباتها.

طلب الصبى ماء. ولم يكن ثمة ماء.
قال إيليا: سأذهب للبحث عن الماء.
قال الصبى: أرغب فى الذهاب معك.
سارا باتجاه البئر. وفى الطريق مرا على بقعة حيث
يدرب القائد جنوده منذ الصباح الباكر.

قال الصبى: لنشاهدهم بعض الوقت. فسوف أصبح
جنديا عندما أكبر. واستجاب "إيليا" لطلب الصبى.
تسأل جندى: من أمهر فى استخدام السيف؟
قال القائد: اذهب إلى المكان حيث كان الجاسوس
يرجم أمس، والتقط حجرا وهشمه.
قال الجندى: لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ الحجر إن يرد
على.

قال القائد: حينئذ هاجمه بسيفك.
قال الجندى: سيتحطم سيفى. ولم يكن هذا ما أسأل
عنه. أريد معرفة من الأفضل فى استخدام السيف.
قال القائد: الأفضل هو الأكثر شبيها بالحجر. فبدون أن
تشهره يثبت أن لا أحد يستطيع قهره.
علق "إيليا": الحاكم على حق، فالقائد رجل حكيم. لكن
أعظم حكمة يعميها الغرور.

* * *

استمرا فى سيرهما. وتساءل الصبى لماذا الجنود
يتدربون كثيرا.

قال "إيليا" ليس الجنود وحدهم، أمك أيضا وأنا وكل
الذين يتبعون قلوبهم . كل شئ فى الحياة يحتاج التدرب.
سأله الصبى: حتى تكون نبيا؟

قال إيليا: حتى لفهم الملائكة. فنحن نتوق للحديث
إليها. ولكننا لا ننصت إلى ما نقول. الإنصات صعب. ففى
صلواتنا نحاول دائما أن نبوح بأثامنا، ونطلب ما نود أن يحدث

لنا. لكن الله يعرف كل هذا، وأحياناً يطلب منا أن ننصت إلى ما يقوله لنا الكون، وأن نتحلى بالصبر.

نظر إليه الصبي دهشاً. يكاد لا يفقه شيئاً مما سمع. ورغم ذلك شعر "إيليا" بحاجة للاستمرار فى الحديث ، فعمل كلمة من هذه الكلمات تساعد الصبي فى موقف صعب عندما يصل إلى مرحلة الرجولة.

وأكمل: كل معركة فى الحياة تعلمنا شيئاً ما، حتى المعارك التى نخسرها. وعندما تتضج ، ستكتشف أنك دافعت عن أكاذيب ، وخدعت نفسك، وعانيت من أجل هراء. فإذا كنت محارباً جيداً، لن تلوم نفسك على هذا. لكنك لن تسمح بتكرار أخطائك .

عندئذ قرر "إيليا" التوقف عن الكلام. فصبى فى مثل عمره لا يستطيع أن يفهم ما قال. سارا ببطء، ونظر "إيليا" إلى شوارع المدينة التى لجأ إليها وحمته ، حتى إنه كاد أن يتلاشى فيها. فكل شئ يعتمد على القرار الذى يجب اتخاذه.

كانت "أكبار" ساكنة أكثر من المعتاد. وفى الساحة الوسطى كان الناس يتهايمسون ، كما لو كانوا يخشون أن تحمل الرياح كلماتهم إلى معسكر الاشوريين.

كان كبارهم يقسمون بأنه لن يحدث أى شئ، بينما الشباب قد اثارهم تخيل مشهد المعركة. أما التجار والحرفيون فكانوا يخططون للرحيل إلى صيدا وتاير حتى استعادة الاستقرار.

قال "إيليا" لنفسه: من السهل عليهم أن يرحلوا، فالتجمل
يستطيعون نقل بضائعهم إلى أى مكان فى العالم، والحرثيون
كذلك يستطيعون العمل حتى فى الأماكن التى يتحدث سكانها
بلغة غريبة .

أما أنا فيجب أن أخذ تصريحاً من الله.

* * *

وصلاً إلى البئر. وملاً وعائين بالماء.

وفى العادة كان المكان يزدحم بالناس، فالنسوة يجتمعن
لغسل الملابس وصباغة الأقمشة وتبادل التعليقات حول كل شئ
حدث فى المدينة . لا شئ يمكن كتمانها بالقرب من البئر. أخبار
الأعمال التجارية، الخيانات العائلية، المشاكل بين الجيران،
الأسرار الخاصة بحياة الحكام، كل شئ خطير أو تافه كان
يناقش ويعلق عليه وينتقد أو يستحسن بالقرب من البئر .

وحتى خلال الشهور التى تزايدت فيها قوات العدو بلا
توقف، ظلت إيزابيل - الأميرة التى احتلت قلب ملك إسرائيل -
هى الموضوع المفضل. كان الناس يمتدحون جرأتها
وشجاعته، وكانوا متأكدين أنها ستعود لمواجهة أى شئ قد
يحدث للمدينة.

وهذا الصباح، لا أحد عند البئر - تقريباً.

وقالت النساء المحدودات اللائى تواجدن هناك إنه من
الضرورى الذهاب إلى الحقول لجمع أكبر كمية من المحصول؛
لأن الاشوريين عما قريب سيغلقون مداخل ومخارج المدينة.

اثنتان منهن كانتا تخططان للذهاب إلى الجبل الخامس
وتقديم القرابين للآلهة، فلم يكن يتصورن موت أو لادهن فى
المعركة .

قالت امرأة لإيليا: نستطيع المقاومة لشهور، هكذا قال
كبير الكهنة، وكل ما نحتاجه هو الشجاعة اللازمة للدفاع عن
كرامة "أكبار"، وعندها ستأتى الآلهة لمعاونتنا.

كان الصبى مرعوباً ، وسأل : هل سيهاجمنا العدو؟
لم يرد "إيليا" فلقد كان الأمر يتوقف على الاختيار
الذى قدمه الملاك له ليلة أمس.

قال الولد بإصرار : أنا خائف.

قال "إيليا" : هذا يثبت أنك وجدت بهجة الحياة. ومن
الطبعى أن تشعر بالخوف عند لحظات محددة.

* * *

عاد "إيليا" والصبى إلى البيت قبل انقضاء النهار.
ووجدوا المرأة محاطة بأوعية صغيرة ممتلئة بأحبار ذات ألوان
شتى.

قالت: يجب أن أعمل، ونظرت إلى الحروف
والعبارات غير المكتملة ، فبسبب القحط امتلأت المدينة
بالتراب، وأصبحت الفرش متسخة دائماً، واختلط الحبر
بالتراب، فأصبح كل شئ أكثر صعوبة.

ظل "إيليا" صامتاً، فلم يرغب أن يشاركه أحد
اهتماماته. وجلس فى ركن من الحجرة الواقعة أسفل السلم،
وغرق فى أفكاره.

قالت المرأة: يحتاج للصمت. وحاولت التركيز فى عملها.

ظلت طوال الظهيرة تعمل على استكمال كلمات قليلة، يمكن كتابتها فى نصف هذه المدة، وشعرت بالذنب لأنها لم تقم بالمتوقع منها.

وعلى كل حال، لأول مرة فى حياتها، سحنت لها الفرصة لتعول أسرتها.

عادت إلى عملها. وكانت تستخدم البردى، خاصة جلبها مؤخرا تاجر من مصر، وطلب منها أن تكتب عليها بعض الخطابات التجارية التى يجب إرسالها إلى دمشق.

لم تكن صحيفة البردى ذات جودة عالية، وكثيرا ما سال الحبر عليها فى بقع ورغم كل هذه الصعوبات، هذه الطريقة أفضل من النقش فى الطين.

وكان من عادات البلاد المجاورة إرسال الرسائل على ألواح من الطين أو رقائق من جلد الحيوان.

ورغم أن حضارة المصريين كانت فى اضمحلال، وكتابتهم أصبحت مهمة، فقد ابتكروا وسيلة سهلة وسحرية لتسجيل معاملاتهم التجارية وتاريخهم، كانوا يقطعون شرائط من نبات ينمو على ضفاف النيل، وبواسطة عملية بسيطة لصقوا هذا الشرائط جوار بعضها لتكون صحيفة صفراء.

وكان على "أكبار" أن تستورد هذا البردى لأنه لم يكن ينمو فى وادىها.

ورغم تكلفته، فضل التجار استخدامه لأنهم يستطيعون حمل الصحائف المكتوبة فى جيوبهم، وقد كان ذلك

مستحيلا مع الألواح الطينية وجلود الحيوانات . قالت المرأة لنفسها : كل شئ يصبح أسهل.

ومن السخف أن سلطة الحاكم كانت ضرورية لإقرار استخدام الهجائية البابلية فى الكتابة على البردى. وثم قانون قديم ما زال يفرض مرور النصوص المكتوبة على مجلس أكابر لفحصها.

بمجرد انتهاء المرأة من عملها، عرضته على "إيليا" الذى كان يتابعها طوال الوقت دون تعليق. وسألته: ما رأيك ، هل تعجبك نتيجة عملى؟

بدا كمن أفاق من غشية ، وقال : نعم. جميل. بلا انتباه لما يقول.

.. لا بد أنه كان يتحدث إلى الله، ولم تشأ أن تزعه . فرحلت لتحضر كبير الكهنة.

وعندما عادت بصحبة كبير الكهنة، كان "إيليا" لا يزال جالسا فى مكانه.

حرق الرجلان فى بعضهما لوقت طويل دون كلام. وكان كبير الكهنة هو من بادر بكسر هذا الصمت، وقال: أنت نبى، وتحدث مع الملائكة. أما أنا بالكاد أفسر القوانين القديمة ، وأنفذ الشعائر ، وأسعى لحماية الناس من الأخطاء التى يرتكبونها. ولهذا أعرف أن هذا الصراع ليس صراعا بين البشر، إنها معركة الالهة ولن أسمح أن أغيب عنها.

قال "إيليا": معجب بإيمانك ، رغم أنك تعبد آلهة لا وجود لها.
وإذا كان الموقف الراهن ، كما تقول، معركة إلهية ،
سوف استخدمنى الله كأداة لهزيمة بلع ورفاقه على الجبل
الخامس. وسيكون من الأفضل لك أن تأمر باغتيالى.
قال كبير الكهنة : فكرت فى هذا ، لكنه لم يكن
ضروريا. فى الوقت المناسب كانت الآلهة تساندنى.
لم يرد "إيليا".

التفت كبير الكهنة ، والنقطة البريدية التى انتهت المرأة
توا من الكتابة عليها، وقال : عمل جيد. وبعد قراءتها بامعان،
خلع الخاتم من إصبعه ، وغمسه فى محبرة صغيرة، وختم به
فى الزاوية اليسرى من البريدية.
وأضاف: إذا عثر على أى شخص يحمل بريدية غير
مختومة من كبير الكهنة، يمكن الحكم عليه بالموت.
سألته : لماذا يجب أن تقوم بهذا العمل دائما؟
قال : لأن البريديات تنقل الأفكار، وللأفكار قوة
وسلطان.

قالت: إنها مجرد صكوك معاملات تجارية.
قال: لكنها قد تكون خططا حربية، أو صلواتنا السرية.
فى هذه الأيام، بالحروف والبرديات، أصبح من السهل سرقة
الإلهام من الناس.
كان من الصعب إخفاء الألواح الطينية أو جلود
الحيوانات، لكن الآن فى وجود البريدى والهجانة البابلية يمكن
إنهاء أية حضارة وتدمير العالم.

.. جاءت امرأة تجرى وتصيح : أيها الكاهن! أيها الكاهن! تعال وانظر ما يحدث!!
وتبعه إيليا "والمرأة. كان الناس يتوافدون من كل صوب متجهين نحو نفس المكان. وكاد أن يصبح الهواء غير صالح للتنفس من الغبار المثار.
حتى الأطفال جروا نحو نفس المكان يضحكون ويصيحون ، بينما مشى الكبار ببطء صامتين .
وعندما وصلوا إلى البوابة الجنوبية للمدينة، كان ثمة حشد قد تجمع هناك. شق كبير الكهنة لنفسه طريقا حتى وصل إلى مصدر هذا الاضطراب.
كان أحد حراس "أكبار" جاثيا على ركبتيه ، بذراعيين مشرعتين ويدين مربوطين إلى قطعة خشب كبيرة على كتفيه.
كانت ثيابه ممزقة ، وعينه اليسرى مقنوعة بفرع شجرة صغير، وعلى صدره مكتوب بنصل سكين بعض الحروف الآشورية.
كان "كبير الكهنة" يفهم الكتابة المصرية ، لكن اللغة الآشورية لم تكن مهمة ليتعلمها ويتذكرها . ولهذا كان من الضروري طلب المساعدة من أحد التجار الموجودين ضمن هذه الحشود. ترجم التاجر الكتابة على صدر الحارس كما يلي:
"نحن نعلن الحرب".
لم ينطق أحد بكلمة . وكان في استطاعة "إيليا" أن يرى البؤس مخطوطا على وجوه الناس.
قال كبير الكهنة لأحد الجنود: أعطنى سيفك . وأطاع الجندى.

طلب كبير الكهنة من الحاكم وقائد الجيش أن يشهدا على ما حدث. وبضربة خاطفة رشق السيف في قلب الحارس الراكع. أن الرجل وسقط على الأرض. لقد مات ، وتحرر من العذاب والعار اللذين سقط في براثنهما.

توجه كبير الكهنة إلى الناس وقال: غدا سأذهب إلى الجبل الخامس لتقديم القرابين، وستذكرنا الآلهة ثانية.

وقبل أن يرحل التفت إلى "إيليا" ، وقال: لقد رأيت ما حدث بعيني رأسك، ما زالت الآلهة تساعدنا.

قال "إيليا" : لدى سؤال واحد لا أكثر.. لماذا ترغب في رؤية قومك ضحايا وقرابين؟

قال كبير الكهنة : لأن هذا ما يجب القيام به لقتل فكوة ما.

وبعدما سمع "إيليا" كلام كبير الكهنة مع المرأة هذا الصباح، أدرك أن هذه الفكرة هي: حروف الهجاء.

قال "إيليا" فات الألوان. لقد انتشرت هذه الطريقة في الكتابة عبر أنحاء العالم، ولن يستطيع الآشوريون احتلال كل الأرض.

قال كبير الكهنة: من يدعى أنهم لن يستطيعوا ؟
وبالإضافة إلى هذا فإن آلهة الجبل الخامس ستساند جيوشها .

* * *

لساعات مشى في الوادي كما فعل بعد ظهر أمس.
كان يعرف أنه لابد من ظهيرة ومساء - على الأقل - يسودها السلام، فالحرب لا تنشب في الظلام لأن الجنود خلاله لا يستطيعون تمييز العدو .

وفى تلك الليلة أدرك ان الله منحه الفرصة لتغيير
مصير المدينة التى أخذته فى حضانها.
قال "إيليا" لملاكه: كان سليمان سيعرف ما يجب أن
يفعله ، وكذلك دلود وموسى وإسحاق . إنهم رجال وثق الله
فيهم، أما أنا فمجرد خادم متردد، منحنى الله فرصة لا تعوض.
رد الملاك : يبدو تاريخ الأسلاف مملوءا بأمثلة على
وجود الرجال المناسبين فى الأماكن المناسبة . ولا تصدق أن
الله يطلب من الناس ما يفوق قدراتهم .

قال "إيليا": إذن لابد أنه أخطأ فى تقديره معى.
قال الملاك : مهما كان أثر ذلك، فإنه يتلاشى فى
النهاية. تلك هى لحظات النصر والمأساوية فى العالم.
قال "إيليا": لن أنسى ذلك . لكن عندما تتلاشى هذه
اللحظات، ستخلف المأساة علامات خالدة، أما لحظات النصر
فلا تخلف سوى ذكريات عديمة النفع.
ولم يرد الملاك عليه.

أكمل "إيليا" لماذا، طوال الوقت الذى مكثته فى
"أكبار"، لم أجد سبلا لتحقيق السلام؟ ما أهمية نبى وحيد
معزول؟

قال الملاك : ما أهمية الشمس فى رحلتها - وحدها -
عبر السموات؟
ما أهمية جبل ينتصب فى منتصف الوادى؟ ما أهمية
بئر معزولة؟
.. نعم إنها تشير إلى الطريق التى يجب أن تسلكها
القافلة.

قال "إيليا" : قلبى غارق فى الحزن. وركع رافعا
ذراعيه إلى السماء.

هل من الممكن أن أموت هنا والآن، حتى لا تتلوث
يداي قط بدماء أهلى أو أية شعوب غريبة.

وقال للملاك: انظر خلفك . ماذا ترى؟

قال الملاك: تعرف أننى أعمى - لأن عيني ما زالت
تحتفظان بنور جلال الله، ولا أستطيع استقبال شئ آخر . فقط
أستطيع إدراك ما يخبرنى به القلب، أستطيع إدراك نذبات
الخطر الذى يهددك ، لكننى لا أستطيع معرفة ماذا يوجد خلفك.
قال "إيليا": حينئذ سأخبرك. خلفى تقع "أكبار". وعند
مشاهدتها فى هذا الوقت من اليوم واشعة الشمس تنيرها، ستبدو
جميلة وجذابة.

ولقد عشت واعتكدت على شوارعها وجدرانها وكرم
ضيافة أهلها.

ورغم أن سكان المدينة ما زالوا أسرى للتجارة
وهواجسها، فإن قلوبهم ما زالت نقية مثل أية أمة على ظهر
الأرض. بينهم تعلمت الكثير مما لا أعرف، وفى المقابل
أنصت إلى مشاكلهم ، وبعون الرب استطعت أن أفض
نزاعاتهم الداخلية. وعندما كنت أمر بظروف خطيرة ، كان
هناك من يساعدنى دائما.

لماذا يجب على الاختيار بين إنقاذ هذه المدينة وتحرير
قومى من إيزابيل.

لجابه الملاك : لأن الإنسان يجب أن يختار ، هنا تكمن قوته وقدرته على اتخاذ القرارات.

قال إيليا: الاختيار صعب. فهو يعنى قبول فناء شعب لأجل شعب آخر .

قال الملاك: ربما يصعب على المرء أن يحدد طريقه، لكن من لا اختيار له؛ ميت بالنسبة لله ، رغم أنه ينتفس ويوجب للشوارع.

وبالإضافة إلى ذلك، أكمل الملاك، لن يهلك أحد، فنراعا الخلود مفتوحتان لكل روح، وكل مخلوق له مهمة، فكل شئ تحت الشمس لابد له من سبب ودافع. ثانياً - رفع "إيليا" نراعيه للسموات وقال: ابتعد قومي عن الله بسبب جمال امواة، وقد تدمر فينيقيا لأن كبير الكهنة ظن أن الكتابة ستهدد الآلهة.

لماذا يا من صنعت العالم تفضل التراجيديا في تدوين كتاب المصير؟

وتردد صدى بكاء إيليا فى الوادى، وعاد إلى أذنيه .
قال الملاك: أنت لا تعرف عما تحدث . لا علاقة للتراجيديا بالأمر . إنه القدر الذى لا يمكن تجنبه . كل شئ فى الحياة لديه دافع للوجود، فقط تحتاج إلى التمييز بين ما هو مؤقت وما هو دائم.

قال "إيليا" : ما هو المؤقت ، وما هو القدرى، وما هو الدائم، وما هى الدروس الناتجة عما لا يمكن تجنبه ؟
وعند انتهاء "إيليا" من سؤاله ، لختفى الملاك.
فى هذه الليلة ، وأثناء وجبة العشاء قال "إيليا" للمرأة والصبي: اجمعوا أشياءكم ، فقد نرحل عند أية لحظة.

قالت المرأة: أنت لم تتم منذ يومين. وظهر اليوم جاء
رسول من الحاكم يسأل عنك ويطلب أن تذهب إلى القصر.
وقلت له إنك في الوادي.
وستنقضي الليلة هناك.
رد "إيليا": تصرف جيد. وذهب مباشرة إلى غرفته
وراح في نوم عميق.

لم يستيقظ "إيليا" إلا فى صباح اليوم التالى على صوت موسيقى.

وعندما هبط السلم ليرى ما الذى يحدث، كان الصبى قد وصل إلى الباب، وأشار إليه قائلا: انظروا وكانت عيناه تلمعان من الإثارة، إنها الحرب.

كانت كتيبة من الجنود بكامل عدتهم وعتادهم ، تتجه إلى البوابة الجنوبية لأكباز ، وخلفها مجموعة من العازفين يضبطون بدقات طبولهم إيقاع الخطوة العسكرية لهذه الكتيبة . قال "إيليا" للصبى: أمس كنت خائفا.

قال الصبى: لم أكن أعرف أن لدينا جنودا كثيرين. مقاتلونا هم الأفضل.

ترك "إيليا" الصبى، وخرج إلى الشارع . فقد كان من اللازم مقابلة الحاكم مهما كلفه الأمر.

أيقظت أناشيد الحرب سكان المدينة الذين خرجوا إلى الشوارع مبهورين بما يرونه، فلأول مرة فى حياتهم يرون

المارش العسكرى لكتيبة منظمة بالملايس الحربية، وقد عكست رماحهم ودروعهم الشعاع الأول للشمس.
كان القائد قد قطع شوطا يحسد عليه. فلقد أعد جيشه دون أن يرى أحد. والآن - أو هكذا يخشى "إيليا" - هو قادر على إقناع الجميع بأن النصر على الأشوريين ميسور.
اندفع "إيليا" بين الجنود حتى وصل إلى المقدمة. وهناك كان القائد والحاكم على جواديهما يقودان الكتيبة.
قال "إيليا" : بيننا اتفاق، وجرى باتجاه الحاكم، أستطيع القيام بمعجزة.
لم يرد الحاكم. وتجاوزت الكتيبة الجدار المحيط بالمدينة إلى الوادى.

قال "إيليا" بإصرار : أنت تعرف أن هذا الجيش محض خيال. والجنود الأشوريون يفوقوننا بخمسة أضعاف، وهم مقاتلون مدربون، فلا تسمح بتدمير "أكبار" .
سأله الحاكم: ماذا تريد منى؟ دون أن يوقف جواده، ليلة أمس أرسلت لك رسولا لتتحدث معا، وأخبرونى أنك خارج المدينة، فماذا فى وسعى؟
قال "إيليا" : مواجهة الأشوريين فى ميدان مفتوح محض انتحار.

أنصت قائد الجيش إلى الحوار دون تعليق - فلقد ناقش خطته مع الحاكم، وكانت بمثابة مفاجأة للنبي الإسرائيلى.
جرى "إيليا" بمحاذاة الخيول ، لا يعرف ما الذى يتحتم عليه أن يفعله.

و غادرت كتيبة الجنود المدينة، متوجهة إلى وسط
الوادي.

همس "إيليا" : (أعني يا رب) مثلما أوقفت الشمس
لتعاون "يوشع" في صراعه ، أوقف الوقت لأتمكن من إقناع
الحاكم بخطئه.

وبمجرد أن فكر في هذا، صاح القائد : توقفوا.
قال "إيليا" لنفسه: ربما هذه هي العلامة ، ولا بد أن
أستفيد منها.

صنع الجنود صفين متداخلين ، فبدوا مثل جدار
بشري، وكانت دروعهم مثبتة في الأرض وسيوفهم مشرعة في
الهواء.

قال الحاكم: هل تصدق أنك تنظر إلى مقاتلي "أكبار".
لجابه "إيليا" : بل أنظر إلى شباب يضحك في وجه
الموت.

قال الحاكم : لتعلم إذن أن هؤلاء مجرد كتيبة .
والجزء الأكبر من رجالنا موجودون في المدينة وفوق
الجدران. ووضعنا فوق هذه الجدران مزاجل ممتلئة بزيت
يغلي سيصب على رؤوس من تسول له نفسه تسلق هذه
الجدران .

كذلك وزعنا المخازن على عدة مواقع، وهكذا لن
تدمر السهام المشتعلة مخزوننا من الغذاء. ووفقا لتقدير قائد
الجيش نستطيع الصمود لحوالي شهرين تحت الحصار.
وهكذا لم يكن الاشوريون يستعدون وحدهم، بل كنا
نستعد نحن أيضا.

قال "إيليا" : لم يخبرنى أحد بذلك.
قال الحاكم: لا تتس أنك مهما ساعدت الناس فى "
أكبار"، ما زلت أجنبيا، وقد يشتبه بعض العسكريين فيك
كجاسوس.

قال "إيليا": لكننى رغبت فى السلام.
قال الحاكم : ما زال السلام ممكنا، حتى بعد بدء
المواجهة. لكننا الآن سوف نتفاوض ونحن متكافئان.
وأفصح الحاكم عن إرساله الرسل إلى صيدا وتأثير
لبين لهم خطورة موقفهم . وكان من الصعب عليه أن يطلب
العون، فقد يظنه الآخرون غير قادر على التحكم فى الموقف.
لكنه فى النهاية توصل إلى أن هذا هو الحل الوحيد. كان قائد
الجيش قد وضع خطة عبقرية، فعند حدوث المواجهة بين
الجيشين، سيعود إلى المدينة لينظم المقاومة. وبعد أن تقتل
القوات فى ميدان المعركة أكبر عدد ممكن من جنود العدو،
تتسحب إلى الجبال، فهم يعرفون الوادئ أفضل من أى شخص
آخر ويستطيعون مباغتة الآشوريين بهجمات خاطفة تخفف من
إحكام الحصار . وهكذا يفك الحصار ويندحر جيش
الآشوريين.

قال الحاكم "إيليا" : نستطيع الصمود ستين يوما ، لكن
هذا لن يكون ضروريا.

قال "إيليا": لكن سيموت كثيرون.
قال الحاكم : جميعنا معرضون للموت، ولم يملك
الخوف من أحد، حتى أنا.

دهش الحاكم لشجاعته، فلم يسبق له أن خاض معركة أبداً، بالإضافة إلى أنه أعد خططاً للفرار من المدينة عند اقتراب لحظة الصدام.
وهذا الصباح تشاور مع أخلص أصدقائه حول أفضل وسائل الهروب.

لم يكن يستطيع اللجوء إلى صيدا أو ناير، فهناك سيعتبر خائناً. أما "إيزابيل" فستستقبله لأنها تحتاج لرجال تستطيع الوثوق بهم.

لكنه عندما نزل إلى ميدان المعركة، رأى في عيون الجنود نظرة مشبوبة، كما لو كانوا قد تدربوا طوال حياتهم لأجل هدف ما، وحانت اللحظة لتحقيقه.

وقال لإيليا: الخوف موجود حتى اللحظة التي يقع فيها المحظور، بعد ذلك لا يجب أن نهدر طاقتنا في الخوف.
كان "إيليا" مشوشاً، فقد انتابه نفس الشعور. لكنه كان خجلاً من إدراكه، واستدعى اهتياج الصبي عندما رأى كتيبة الجنود.

قال الحاكم: أما أنت فمستثنى من كل هذا. أنت أنجبي، غير مسلح، ولا حاجة بك للقتال في سبيل شيء لا تؤمن به.

ولم يتحرك "إيليا".
قال قائد الجيش: سيأتون بلا شك. وبينما كنت مفاجأ بذلك، كنا نستعد. ورغم ذلك - ظل "إيليا" ساكناً حيث يقف.
تفحصوا الأفق. لم يكن ثمة غبار، فالجيش الأشورى لم يتحرك.

فى مقدمة الجيش وقف الجنود يحملون رماحهم بثبات،
بأسنتها مصوبة تجاه العدو، والرماة متأهبون فى انتظار أمر
القائد ليطلقوا سهامهم .

وكذلك كان ثمة نفر من الرجال يبارزون السهواء
بسيوفهم ليحتفظوا بعضلاتهم دافئة.
قال القائد مجددا: كل شئ على أهبة الاستعداد وهم
سيهجمون .

لاحظ "إيليا" التحفز فى صوت قائد الجيش. فهو لابد
يتوق لنشوب المعركة، يتوق لإثبات شجاعته . وبلا شك كان
يتخيل الجنود الأشوريين ، وصليل السيوف، والصراخ
والهرج، ويرى نفسه وقد تحول إلى مثال للكفاءة والشجاعة
يذكره الكهنة.

قاطع الحاكم تنفلق أفكار "إيليا"، وقال : لن يتحركوا.
تذكر "إيليا" ما طلبه من الله، بأن تثبت الشمس فى
مكانها فى السماء كما فعل الله مع "يوشع" . وحاول أن يتحدث
مع ملاكه، لكنه لم يسمع صوته. شيئا فشيئا، خفض حاملو
الرماح رماحهم ، وأرخی الرماة أوتارهم، وأغمد حاملوا
السيوف سيوفهم.

وبانتصاف النهار أصبحت الشمس حارقة ، وتأثر
كثير من المحاربين بهذه الشمس لحد الإغماء، ورغم ذلك ظلت
البقية مستعدة طوال اليوم.

وعند غروب الشمس عاد المحاربون إلى "أكبار" ،
وبنوا كما لو كانوا أصيبوا بخيبة أمل لبقائهم أحياء ليوم آخر .

وحده "إيليا" مكث في الوادي، وأثناء تجواله ظهر
النور له ، وتجلّى ملاك الله أمامه، وقال: سمع الله صلواتك
ورأى عذاب روحك.
توجه "إيليا" إلى السماء ليشكر الله على نعمته، وقال :
يا الله، يا مصدر كل العظمة والسلطان، أوقف الجيش
الاشوري.
قال الملاك: لا. افترضت أن الاختيار له ، وهو ترك
الخيار لك .

قالت المرأة لابنها: لنذهب.

رد الصبي : لا أريد الذهاب. فانا فخور بجنود

"أكبار".

أمّرتّه أمّه أنّ يلحق برفاقه ، وقالت: خذ فقط ما

تستطيع حمله.

قال الصبي: نسيت أننا فقراء، وليس لدى الكثير.

صعد "إيليا" إلى حجرته . وتطلع كما لو كان لأول

وأخر مرة في حياته.

وسرعان ما هبط ووقف يتابع الأرملة وهي تخزن

أحبارها.

قالت الأرملة: أشكرك ، لأنك ستصبحني معك. كنت

في الخامسة عشرة عندما تزوجت ولم أكن أعرف شيئاً عن

الحياة.

حينها قامت عائلتنا بكل الترتيبات، أما أنا فقد تمت
تتسنى وإعدادى لأجل هذه اللحظة ولمساعدة زوجى فى كل
الظروف.

سألها "إيليا" هل أحببته؟

قالت المرأة : علمت قلبى أن يفعل ذلك، لأنه لم يكن
ثمة اختيار. وأقنعت نفسى بأنها كانت أفضل وسيلة للعيش.
وعندما مات زوجى وأسلمت نفسى لرتابة الحياة، توسلت لآلهة
الجبل الخامس - وكنت أؤمن بها فى تلك الأونة - أن تنهى
حياتى بمجرد أن يصبح طفلى قادرا على الاعتماد على نفسه.
كان هذا الحال عند ظهورك. سبق أن أخبرتك بذلك، والآن
أرغب فى تكراره. ومنذ هذا اليوم بدأت أحظ جمال الوادى،
دكنة الجبال على صفحة السماء والقمر وهو يغير هيئته مما
يساعد القمر على النمو.

طوال الليل، بينما أنت نائم، كنت أتجول فى "أكبار"،
أنصت لبيكاء الأطفال حديثى الولادة، أغنيات الرجال الذين
سكروا بعد الانتهاء من العمل، الخطوات الحازمة للحراس وهم
يدورون حول جدران المدينة.

.. كم مرة رأيت الأفق دون الانتباه إلى جماله؟ كم
مرة نظرت إلى السماء دون الانتباه لعمقها ؟. كم مرة سمعت
الأصوات فى "أكبار" دون أن أدرك أنها جزء من حياتى؟
وعاودتنى الرغبة فى الحياة من جديد. وأخبرتتى أن
أدرس الحروف البابلية ، وفعلت ذلك. حينها فكرت فقط فى
إسعادك، لكننى تحولت إلى الاهتمام العميق بما أفعله ،
واكتشفت شيئا: "جوهر حياتى تشكله رغبتى".

مس "إيليا" شعرها. وكانت هذه هي المرة الأولى.

سألته : لماذا لم تفعل هذا معي دائما؟

قال: لأنني كنت خائفا. أما اليوم، وفي انتظار نشوب المعركة، سمعت كلمات الحاكم وفكرت بك، فالخوف يستمر فقط حتى النقطة التي يبدأ عندها وقوع المحذور، عندئذ يفقد الخوف معناه ، ولا يتبقى لنا سوى الأمل فـى أن نكون قد اتخذنا القرار الصواب.

قالت : أنا جاهزة.

قال: سنعود إلى إسرائيل، أخبرني الرب بما يجب على القيام به، ولهذا سأعود وستستبعد "إيزابيل" من السلطة. لم تتطرق المرأة. فقد كانت فخورة باميرتها مثل كل النساء الفينيقيات . ولهذا فعند وصولهما إلى إسرائيل ستسعى إلى إقناع رجلها بتغيير رأيه.

قال "إيليا" - كما لو كان قد خمن ما تفكر به - ستكون رحلة طويلة وشاقة، ولن نرتاح حتى أنفذ ما طلبه الرب مني، سيظل حيك سندي، وفي اللحظات التي أضجر فيها أثناء خوضي لمعارك باسمه ؛ سأجد السكنينة بين ذراعيك.

ظهر الصبي حاملا حقيبة صغيرة على كتفه . لأخذها "إيليا" عنه وقال للمرأة: حانت الساعة. فعندما تعبرين شوارع أكبار تذكرى كل منزل بها وكل صوت لأنك لن تريها ثانية .

قالت: لقد ولدت في "أكبار". وستبقى المدينة محفوظة في قلبي للأبد.

و عند سماعه هذا الكلام، أقسم الصبي بأنه لن ينسى قط كلمات أمه.

وإذا تمكن من العودة يوما ما؛ سيرى وجهها على كل
شئ فى المدينة.

• • •

كان الظلام قد حل عندما وصل كبير الكهنة إلى سفح
الجبل الخامس، ممسكا فى يده اليمنى صولجانا ، وفى يده
اليسرى يحمل حقيبة كبيرة أخرج منها زيتا مقدسا دهن به
جبهته ويديه. ورسم بالصولجان فى الرمل: ثورا ونمرا ،
رمزى إله العاصفة وكبيرة الربات.

وفى النهاية فتح ذراعيه ورفعهما تجاه السماء ليستقبل
الرؤيا الإلهية المقدسة. والآلهة لن تتحدث إلى البشر، فقد قالت
كل ما رغبت، والآن لا تطلب سوى أداء الشعائر المقدسة.
أما الأنبياء فقد اختفوا من كل مكان فى العالم، باستثناء
إسرائيل، البلد المتخلف المؤمن بالخرافة وبأن الإنسان يستطيع
الاتصال بمن خلقوا الكون.

واستدعى كبير الكهنة ما حدث قبل أجيال، حين كانت
صيدا وتاير جيرانا مع سليمان ملك أورشليم. وكان بينى معبدا
عظيما ، ورغب أن يزخره بكل نفيس فى هذا العالم. وأمر
بإحضار شجر الأرز من فينيقيا التى كانوا يدعونها (لبنان).
ووفر ملك "تاير" كل الخامات المطلوبة وتسلم فى المقابل
عشرين مدينة فى الجليل. لكنه لم يرض بهذه المدن، فسأعه
سليمان كذلك فى تشييد أولى سفنه، والآن أصبحت فينيقيا مالكة
أكبر أسطول تجارى فى العالم.

وفى هذا الوقت كانت إسرائيل بلدا عظيما، رغم عبدة
رب واحد لم يكن حتى اسمه معروفا، فقط يدعى: الله.

ونجحت أميرة من صيدا فى إعادة سليمان إلى الإيملان
الحقيقى. وشيد منجحا لألهة الجبل الخامس.
وأصر الإسرائيليون أن (الله) قد عاقب أكثر ملوكهم
حكمة، وابتلاه بالحروب التى هددت ملكه وسلطانه.
واستكمل ابنه (رحبعام) العبادة التى ابتدأها أبوه .
وأمر بصناعة عجلين ذهبيين عبدهما الناس فى إسرائيل.
ومنذ ذلك الحين ظهر الأنبياء وبدأوا صراعا لا ينتهى
ضد الحكام وقوانينهم.. كانت إيزابيل على حق. فالمسبيل الوحيد
للحفاظ على الإيمان الحقيقى هو إبعاد الأنبياء.
ورغم أنها امرأة رقيقة، تربت على التسامح
والاشتمزاز من مجرد التفكير فى الحرب، فقد أدركت أنه فى
لحظة لا بد قادمة، ستصبح القوة هى الحل الوحيد. وستغفر
الالهة التى خدمتها، ثلوث يديها بالدماء.
قال كبير الكهنة للجبل الصامت أمامه: قريبا ستلتطخ
الدماء يدي .
فكما كان الأنبياء لعنة إسرائيل، فالكتابة لعنة فينيقيا..
كلاهما جلب شرا لا سبيل للخلاص منه ، وكلاهما يجب إيقافه
عندما يتيسر ذلك.
لا يجب أن يبتلىنا "إله الطقس" بالقط الآن.
كان كبير الكهنة مشغولا بما حدث هذا الصباح،
فجيوش العدو لم تهاجم. فى الماضى خذل إله الطقس فينيقيا
لأنه كان غاضبا على سكانها. ونتيجة ذلك ظلمت المصابيخ
مضاعة ، وهجرت الأغنام والأبقار صغارها، وفشل القمح
والشعير فى النضج.

وأمر "إله الشمس" بإرسال الكائنات المهمة للبحث عنه، الصقر وإله العاصفة، لكن لم ينجح أحد في العثور عليه. في النهاية ، أرسلت الربة العظيمة "نحلة"، ونجحت النحلة في العثور عليه نائما في الغابة فلدغته، فاستيقظ فزعاً وبدأ يحطم كل شئ حوله.

وكان من الضروري تقييده وإزالة الغضب من روحه، ومنذ ذلك الوقت عاد كل شئ إلى طبيعته. وإذا قرر الرحيل ثانية ، لن تتشب المعركة ، وسيظل الآشوريون في مكانهم عند مدخل القرية، وستظل أكبار موجودة.

قال كبير الكهنة: الشجاعة خوف يصلى. وهذا سبب وجودى هنا لأننى لا أستطيع أن أبداً متردداً عندما تحين المواجهة. يجب أن أقدم للمحاربين السبب الذى من أجله يدافعون عن المدينة.

والبئر ليس سبباً ، ولا الموقع التجارى ، ولا قصر الحاكم.

سنواجه الجيش - الآشورى ، لأننا يجب أن نقدم نموذجاً يحتذى به .

وسيضع انتصار الآشوريين نهايةً لتهديد الأبجدية لكل الأزمان القادمة. سيفرض الغزاة لغتهم وعاداتهم ، لكنهم سيستمرون فى عبادة نفس آلهة الجبل الخامس، وهذا ما يهم بحق.

وفى المستقبل سيحمل ملاحونا بطولة محاربينا إلى بلاد أخرى. وسنذكر الكهنة أسماء وتاريخ مقاومة أكبار للغزو الأثوري . وسيرسم الرسامون الحروف المصرية على البردى، أما النصوص البابلية فسيقضى عليها. وستظل النصوص المقدسة فى أيدي من خلقوا لدراستها.

عندئذ ستحاول الأجيال التالية تقليد ما سبق أن قمنا به ، وسنبنى عالما أفضل لكن الآن، علينا أن نخسر هذه المعركة أولا. سنقاتل بشجاعة، رغم ضعف موقفنا، وسنموت فى عزه.

وفى هذا اللحظة أنصت كبير الكهنة لليل وأدرك أنه على حق - فهذا الصمت لايد سبق معركة مهمة ، لكن الناس فى "أكبار" أساءوا تفسيره، ووضعوا أسلحتهم جانبا، وانصرفوا للاستمتاع فى لحظة تتطلب اليقظة والتحفز. ولم ينتبهوا جيدا للمثال الذى تقدمه الطبيعة: تصمت الحيوانات عند دنو الخطر.

لنتحقق مشيئة الآلهة . وربما لا تنطبق السماء على الأرض لأننا فعلنا الصواب وأطمعنا التقاليد. هذا ما انتهى إليه كبير الكهنة.

اتجه "إيليا" وبصحبته المرأة والصبي إلى الغرب نحو إسرائيل. ولم يضطروا للمرور بمعسكر الآشوريين لأنه كان في الجنوب.

وجعل "البدر" السير أسهل ، رغم أنه أدى إلى انعكاس ظلال غريبة وأشكال مخيفة على صخور وأحجار الوادي. ومن أعماق الظلام ظهر ملاك الله. وكان يحمل سيفاً من نار في يده اليمنى، وسأله: إلى أين أنتم ذاهبون؟ قال "إيليا" : إلى إسرائيل.

سأله الملاك: هل أمرك الله بذلك؟

قال "إيليا" : أعرف المعجزة التي يتوقعها الرب منى. والآن أعرف أين أستطيع تحقيقها.

كرر الملاك سؤاله: هل أمرك الله بذلك؟

قال "إيليا": لا.

قال الملاك: إذن عد إلى المكان الذي جئت منه، لأنك لم تنفذ ما قدر.

ولا بد أن يأمرك الله بذلك.

قال "إيليا": إذا لم يكن هناك شئ آخر، اسمح لهم بالرحيل، فلا داعى لبقائهم.

واختفى ملاك الله. فأسقط "إيليا" الحقيبة التى يحملها وجلس وسط الطريق يبكى بمرارة. سألته المرأة والصبي، ولم يكونا قد رأيا أى شئ: ماذا حدث؟

قال "إيليا": سنعود إلى "أكبار"، وفق مشيئة الله.

• • •

لم يستطع أن ينام جيدا، واستيقظ فى الليل مستشجرا التوتير الذى يملأ الهواء حوله، ورياح الشر التى تصفر فى الشوارع تبث الرعب والاضطراب. تلا فى صمت: "فى حب امرأة اكتشفت حبا للمخلوقات كافة".

احتاجها. وأعرف أن الله لن ينسى أننى أحد أدواته، وربما أكون أضعف أداة اختارها - أعنى يارب. أنا فى حاجة للسكينة وسط كل هذه المعارك.

واستدعى ما قاله الحاكم عن "لا جدوى الخوف"، ورغم ذلك جافاه النوم.

همس: أحتاج الطاقة والهدوء، فامنحنى بعض الراحة ما دام ذلك ممكنا.

وفكر فى استدعاء ملاكه والتحدث معه لبرهة، لكنه أدرك أنه قد يخبره بأشياء لا يرغب فى سماعها، فغير رأيه.

وأثناء بحثه عن الهدوء هبط السلام. حيث كانت الحفائب التي أعدتها المرأة لرحلتها لم تفرغ بعد. فكر فى الرجوع إلى حجرته ، وتذكر ما قاله الرب لموسى : "من هو الرجل الذى بنى بيتا جديدا ولم يدشنه . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب ويدشنه رجل آخر".

ولم يكونا قد عرفا بعضهما حتى الآن. لكنه كان ليلا مملا، وليست هذه بال لحظة المناسبة للقيام بهذا.

قرر أن يفرغ الحفائب ويعيد كل شئ إلى مكانه . اكتشف، بالإضافة - إلى الملابس القليلة التى تمتلكها، أنها كانت تحمل الأدوات اللازمة لرسم الحروف البابلية . التقط قلم السمة (المرقم) ، وبلل لوحا صغيرا من الطين ، وبدأ فى رسم بعض الحروف تعلم كتابتها من متابعته للمرأة وهى تعمل .. يا له من شئ بسيط وغبى. هكذا همس لنفسه، أن تسعى لتحويل ذهنك لاهتمامات أخرى. فكثيرا وهو فى طريقه للبئر، ما كان يسمع النسوة يعلقن : "سرق الإغريق أهم اختراعاتنا" ، لكن "إيليا" لم يكن ير الأمر كذلك ، فالتغيير الذى أدخله الإغريق بإضافة الحروف المتحركة ، حول حروف الكتابة البابلية إلى حروف هجائية (ألفابيت Alphabet) يستطيع الناس فى كل البلاد استخدامها.

وبالإضافة إلى ذلك أطلقوا على رقائهم الـ (بيبليا) نسبة إلى اسم المدينة التى اخترعت فيها هذه الكتابة. وكانت الـ (بيبليا) الإغريقية تكتب على جلود الحيوانات. ورأى "إيليا" أن هذه طريقة هشة لحفظ الكلمات ، فالجلود مقاومتها أقل من الألواح الطينية ، وكذلك سهل

سرقته . أما البردى ؛ تبيته الكتابة عليه بعد فترة من تداوله ،
وتتلفه المياه كذلك.

الـ (بييليا) والبردى لن يدوما ، أما الواح الطين فمقدر
لها أن تخلد للأبد - هكذا قال "إيليا" لنفسه.

وإذا ما نجت "أكبار" من الدمار ، سوف يستشير إيليا
الحاكم بأن يأمر بتدوين تاريخ البلد على ألواح طينية تحفظ في
حجرة خاصة ، وهكذا تستطيع الأجيال القادمة الرجوع إليها .
وبهذه الطريقة لن تنسى مآثر المحاربين وكلمات الشعراء ، إذا
ما هلك الكهنة.

وشغل "إيليا" نفسه لبعض الوقت بكتابة نفس الحروف
مرات متعددة بترتيب مختلف كل مرة ، مكونا بذلك عدة
كلمات . وسحرته نتيجة عمله وجعله هذا الفعل المتكرر يشعر
بالراحة ، فعاد إلى سريره.

* * *

استيقظ "إيليا" بعد فترة على صوت ارتطام باب
حجرته بالأرض.

لم يكن حلما ، ولم تكن جيوش الله في معركة .
تداعت الظلال من كل صوب ، تصرخ مثل المجانين
بلغة لم يفهمها .. إنهم الآشوريون.

سقطت أبواب أخرى ، وتهافت الجدران تحت
ضربات المعاول القوية ، واختلطت صرخات الغزاة بالبكاء
الذي جاء من الساحة . حاول النهوض ، لكن أحد الظلال دفعه
إلى الأرض.

جاءه صوت مكتوم لاهتزاز الأرض بأسفل.
"النار" - هكذا ظن "إيليا" - إنهم يشعلون النار فى
المنزل.

سمع أحدهم يقول بالفينيقية : إنه أنت . أنت القائد ،
وتختبئ كجبان فى منزل امرأة.

نظر إلى وجه الرجل الذى كان يتحدث ، وكانت السنة
الذهب تضىء الحجرة، فاستطاع أن يرى رجلا بلحية طويلة فى
زى عسكرى ، فتأكد أن الآشوريين دخلوا المدينة.
تسائل باضطراب: لقد قمتم بالغزو ليلا؟

لم يرد الرجل . ورأى "إيليا" بريق السيوف وهى
تخرج من أعمادها، وجرح أحد المحاربين ذراعه الأيمن.

أغلق "إيليا" عينيه، وتوالت مشاهد حياة كاملة أمامه
فى جزء من الثانية. ثانية - رأى نفسه يلعب فى طرقات
المدينة التى ولد بها ، ويسافر إلى أورشليم لأول مرة فى
حياته، ويشم رائحة الخشب المقطوع فى دكان النجارة، ملخوذاً
باتساع البحر وبالملابس التى يرتديها الناس فى البلاد الساحلية
الكبيرة ورأى نفسه يجوب وديان وجبال الأرض الموعودة،
متذكراً المرة الأولى التى رأى فيها "إيزابيل" وكيف كانت شابة
ساحرة فتنت كل الذين اقتربوا منها.

وشهد مجدداً المذبحة لثى تعرض لها الأنبياء، وسمع
صوت الله يأمره بالخروج إلى الصحراء. ورأى ثانية عيون
المرأة التى انتظرتة عند أبواب صرفة، التى يدعى سكانها
"أكبار"، وأدرك لماذا أحبها من اللحظة الأولى.

ومرة أخرى تسلق الجبل الخامس، وأعاد طفلاً إلى الحياة، ورحب الناس به كحكيم وقاض. ونظر إلى السماء، حيث النجوم تغير مواقعها بسرعة، وكان مأخوذاً بالقمر الذى تمر عليه الفصول الأربعة فى نفس اللحظة، الشعور بالحرارة والبرودة والخريف والربيع، مجرباً المطر ولمعان البرق. وانزلت ملايين السحب بأشكال مختلفة، وعادت مياه الأنهار إلى السريان - ثانية. وعاش مجددا اليوم الذى رأى فيه أول خيمة آشورية تتصب فى الوادى وتلتها الثانية ثم عديد من الخيام، وكذلك الأيام التى كانت الملائكة تلتى خلالها وتروح، السيف المشتعل على الطريق إلى إسرائيل، ليال بلا نوم. الرسومات على الألواح البطينية، و... و... عاد ثانية للحضر، وشغله ما يحدث فى الدور السفلى، فقد كان عليه أن ينقذ الأرملة وابنها مهما كلفه الأمر.

قال لأحد جنود الأعداء: النيران. المنزل يحترق.

لم يكن خائفاً، وكل ما شغله الأرملة وابنها.

دفع أحدهم رأس "إيليا" إلى الأرض، فشعر بطعم الأرض فى فمه؛ فقبله وأخبره كم يحبه ووضح له أنه فعل ما بوسعه ليتجنب ما حدث. وحاول أن يتحرر من أسر هؤلاء الجنود، لكن أحدهم وضع قدماً على صدره.

قال لنفسه: لا بد قد فرت. وهم لن يؤذوا امرأة بلا حول أو قوة. أخذت قلبه انقباضة فكاد أن يتوقف. فربما أدرك الله أنه رجل. غير مناسب، ووجد نبيا غيره ينقذ إسرائيل من الخطيئة. الموت فى النهاية، بالطريقة التى كان يأملها

ليصبح شهيدا. تقبل قدره وانتظر الضربة القاضية. مرت
الثواني، والأصوات ما زالت صارخة ، والدم يسيل من
جرحه، وتمنى أن تأتي الضربة القاضية. صرخ : "اطلب منهم
أن يقتلوني فى الحال" ، وكان يعرف أن أحدهم - على الأقل -
يتحدث لغته.

ولم يلتفت أحد لكلماته . كانوا يتجادلون بحدة ، كما لو
أن ثمة خطأ قد حدث.

بدأ بعض الجنود يركلونه، ولأول مرة لاحظ "إيليا" أن
غريزة البقاء تعلن عن نفسها وخلق هذا بداخله شعورا بالهلع.
همس بيأس: لا أستطيع أن أرغب فى الحياة أكثر من
هذا ، لأننى لن أغادر هذه الغرفة حيا.

ولم يحدث شئ . وبدا العالم كما لو كان قد علق إلى
ما لا نهاية فى هذا التشوش من الصراخ والضجيج والغبار.
ربما يكون الرب قد قام بمثل ما قام به مع "يوشع"،
ويكون الوقت قد توقف وسط المعركة. عندئذ سمع صرخات
المرأة تأتيه من أسفل . وكانت كمن يحاول مقاومة شخص
قوى، فدفع "إيليا" اثنين من الحرس وعانى ليقف على قدميه ،
لكن سرعان ما تلقى ضربة على رأسه جعلته يسقط فاقتدا
الوعى.

• • •

استعاد وعيه بعد دقائق قليلة، وكان الأشـوريون قد
سحبوه إلى الشارع. رفع رأسه، و كان ما زال يعانى من
الدوار ، فرأى كل المنازل المحيطة به تحترق. صرخ: امرأة
بريئة ، بلا حول أو قوة ، أمسكوا بها.. أنقذوها!!

.. صرخات ، ناس يهرولون فى كل اتجاه ، واضطراب فى كل مكان.
حاول النهوض، لكنه سقط أرضاً من جديد.
توسل "إيليا" : يا الله، لك أن تفعل بى ما تشاء، لأننى وهبت حياتى وموتى لنصرتك. لكن أنقذ المرأة التى أوتتى.
رفعه شخص ما من ذراعيه، وقال له ضابط آشورى يعرف لغته:

تعال وشاهد، أنت تستحق.
قيده حارسان ودفعاه باتجاه الباب. وسرعان ما التهمت النيران المنزل، وكشف الضوء المنبعث عنها كل شئ حولها.
سمع صرخات تأتي من كل اتجاه: أطفال ينشجون ، عجائز يتوسلون لنيل العفو، نساء يائسات يبحثن عن أطفالهن. ورغم ذلك حاول النقاط أية أصوات قد تساعده على إنقاذ هذه المرأة التى وفرت له المأوى والحماية.
ماذا يحدث؟ امرأة وطفلهما محبوبان بالداخل!! لماذا تفعلون هذا بهما؟
قال الضابط الآشورى : لأنهما حاولا إخفاء حاكم "أكبار".

قال "إيليا" : أنا لست الحاكم ! أنتم ترتكبون خطأ فادحاً!
دفعه الضابط الآشورى إلى الباب وكان السقف قد تهاوى من النيران.

وكانت المرأة نصف مدفونة بين الحطام. ولم يستطع "إيليا" أن يرى سوى ذراعها يتحرك في يأس من ناحية إلى أخرى. كانت تطلب العون، وتتوسل لهم ألا يتركوها تحترق وهي حية.

تساءل دهشا : لماذا تبقون على؟ وتعملون هذا بها؟
قال الضابط الآشوري: نحن لا نبقي عليك، بل نرغب أن نتألم إلى أقصى حد.
لقد مات قائدنا ميتة دنيئة، رجم حتى الموت أمام جدران المدينة.
ورغم أنه جاء يسعى إلى حفظ الحياة، حكمت عليه بالموت. والآن ستلقى نفس المصير.
صارع "إيليا" في يأس ليحرر نفسه، لكن الحراس حملوه بعيدا.

ومروا في شوارع "أكبار" تلفحهم حرارة جهنمية .
كان الجنود يحرقون بغزارة، وبدا بعضهم كما لو كانوا أصيبوا بصدمة مما شهدوه.

وكان "إيليا" يصرخ ويعلم تدمره ضد السماء، لكن الجنود الآشوريين كانوا صامتين مثل الله ذاته.
وصلوا إلى الساحة. كان معظم المدينة مشتعلا، وفحيح السنة اللهب يتداخل مع صراخ سكان "أكبار".
"كم هو حسن أن الموت ما زال موجودا.
فمنذ ذلك اليوم في الإسطنبول ، كثيرا ما فكر "إيليا" في هذا الأمر!!..

كانت جثث محاربى "أكبار" معظمها عارية، مبعثرة
فى شوارع المدينة ورأى الناس يحرون فى كل اتجاه، لا
يعرفون إلى أين يتجهون ، ولا يدركون ما يرونه، لم يتبق لهم
سوى التظاهر بفعل شئ ما ، يقاتلون ضد الموت والدمار .
فكر "إيليا" : لماذا يفعلون هذا؟ ألا يرون أن المدينة قد
وقعت فى أيدي العدو، ولا سبيل للفرار؟
كل شئ حدث بسرعة. واستغل الاشوريون ميزة
التفوق العددي، ونجحوا فى ادخار مقاتليهم بلا معركة.
توقف الجنود ومعهم "إيليا" فى منتصف الساحة..
وأجبر "إيليا" على السجود ويداه مقيدتان. ولم يعد يسمع
صرخات المرأة، فربما تكون قد ماتت سريعا، دون أن تعاني
من العذاب البطيئ عند احتراقها حية.
أخذها الله بين يديه، واحتضنت ابنها إلى صدرها.
أحضرت مجموعة أخرى من الجنود الاشوريين سجيناً
تشوه وجهه بكدمات لا حصر لها. ورغم ذلك تعرف إيليا عليه،
إنه قائد الجيش.
صاح القائد: تعيش "أكبار" تعيش فينيقيا ومحاربوها
الذين يشتبكون مع العدو فى النهار! الموت للجناء الذين
يهجمون فى الظلام!!
وبالكاد أنهى جملته ، ليهوى سيف اشورى وتندحرج
رأس القائد على الأرض.
قال "إيليا" لنفسه: جاء دورى . سأقابلها ثانية فى الجنة
حيث سنسير متشابكى الأيدي. وعند هذه اللحظة اقترب أحد

سكان "أكبار" ممن اعتادوا حضور الاجتماعات فى الساحة. وتذكر "إيليا" أنه قد ساعده وفض له نزاعا خطيرا مع جار له. كان الآشوريون يتناقشون فيما بينهم، وأصواتهم تعلو وتعلو، وكانوا يشيرون نحوه. سجد الرجل، وقبل قدم أحد القلدة الآشوريين، ماذا يده تجاه الجبل الخامس. وكان يبكى مثل طفل. وبدأت تخف حدة الغزاة فى نقاشهم الذى بدا بلا نهاية. كان الرجل يتوسل ويبكى طوال الوقت مشيرا إلى "إيليا" وإلى المنزل، حيث اعتاد الحاكم أن يعيش.

بدا الجنود غير مقتنعين بنتيجة نقاشهم. وفى النهاية اقترب الضابط الذى يتحدث لغة "إيليا" وقال: جاسوسنا عرف الرجل، ويقول إننا أمسكنا الرجل الخطأ. وهذا الجاسوس أعطانا خرائط المدينة، ونحن نثق فيما يقول.

.. لست من نرغب فى قتله. ودفعه بقدمه، فسقط "إيليا" على الأرض.

واكمل الضابط: ويقول كذلك إنك يجب أن تذهب إلى إسرائيل وتطيح بالأميرة التى استولت على العرش. فهل هذا حقيقى؟

لم يرد "إيليا".

قال الضابط بإصرار: أخبرنى إذا كان ما قاله حقيقى وعندئذ تستطيع أن تذهب من هنا وتعود إلى منزلك فى الوقت المناسب لتتخذ المرأة ولبنها.

قال "إيليا": نعم، إنه حقيقى. فربما الله استجاب له وسيعاونه على إنقاذهما.

أكمل الضابط الآشوري: نستطيع أن نأخذك معنا
أسيرا ونحن متوجهون إلى صيدا وتأير. لكن ما زالت أماننا
معارك كثيرة، وسوف تشكل عبئا على ظهورنا.

ويمكننا أن نطلب فدية مقابل إطلاق سراحك، لكن
نطلبها ممن؟ فأنت أجنى حتى في بلدك. ووضع الضابط قدمه
على وجه "إيليا"، أنت بلا نفع. لا فائدة منك للعدو أو
للأصدقاء، تماما مثل مدينتك هذه، فهي لا تستحق أن نترك
جزءا من جيشنا هنا. لنضمن ولأهنا لنا. فعندما نغزو المدن
الساحلية ستصبح "أكبار" في يدنا بلا شك.

قال "إيليا": عندي سؤال واحد، مجرد سؤال واحد.
نظر الضابط إليه بحذر.

قال "إيليا": لماذا هجتم في الليل؛ ألا تعلم أن
الحروب تنشب في النهار.
أجاب الضابط: نحن لم نكسر قانونا، فلا يوجد عرف
يحرّم هذا.

ولا تنس أننا انتظرنا طويلا حتى اعتدنا على هذه
الأرض.

أما أنتم فقد وقعت تحت سطوة العادات للحد الذي
نسيتم عنده أن الزمن تغير. وبدون أية كلمة أخرى، غادرته
المجموعة.

اقترّب الجاسوس وحل وثاقه، وقال: قطعت على
نفسى عهدا بأننى يوم سوف أرد لك جزاء كرمك، ولقد
وفيت عهدي. فعندما دخل الآشوريون القصر أخبرهم أحد

الخدم أن الرجل الذى يبحثون عنه اختبأ فى منزل الأرملة.
وعندما ذهبوا إلى هناك تمكن الحاكم الحقيقى من الفرار.
لم يكن إيليا منصتا . وكانت النار منتشرة فى كل
مكان، والصراخات لا تنقطع.
ووسط هذا الاضطراب، كان هناك دابل على أن
جماعة ما تحافظ على النظام، مطيعة أمرا غير مرئى، فقد كان
الأشوريون ينسحبون فى صمت.
وانتهت معركة "أكبار".

• • •

قال لنفسه: لقد ماتت. لا أريد الذهاب إلى هناك، فهناك
هى ميتة، وربما تكون أنقذت بمعجزة، وستأتى لتبحث عنى.
لم يطاوعه قلبه لينهض ويذهب إلى المنزل الذى
عاشت به الأرملة.

وفى هذه اللحظة كان ثمة صراع بين "إيليا" ونفسه
يتجاوز رغبته فى التأكد من حب المرأة، إلى حياتها نفسها
وإيمانه بتدابير الله والرحيل من مسقط رأسه ، وفكرة أنه تحمل
مهمة وأنه قادر على إتمامها.

نظر حوله باحثا عن سيف يستطيع أن ينقذ به حياته ،
لكن الأشوريين أخذوا معهم كل سلاح فى "أكبار".
فكر أن يلقي نفسه فى النيران المشتعلة بالمنزل، لكنه
خشى الألم.

للحظات وقف مشلولاً . وشيئا فشيئا بدأ يستعيد وعيه
بالموقف الذى وجد نفسه به. لابد أن المرأة وطفلها ماتا،

ويجب عليه أن يدفنهما وفق العادات . وفى هذه اللحظة لم يكن أمامه سوى انتظار عزن الله، موجودا كان أو غير موجود.
وبعد إنهاء واجبه الدينى، سيستسلم للألم والشك.
وبالإضافة إلى ذلك ثمة احتمال بأنهم ما زالوا أحياء.
وهو لا يطيق البقاء هناك بلا شئ يفعله.
همس لنفسه : لا أريد رؤية وجوههم المحترقة،
وجلدهم وقد سقط عن لحمهم، والان أرواحهم تهيم فى السماء.

* * *

رغم ذلك مشى تجاه المنزل مصدوما ومعميا بالدخان
الذى حال دونه والعثور على الطريق. تدريجيا بدأ يدرك حال
المدينة. فرغم انسحاب العدو، كان الهلع مسيطر عليها ، وما
زال الناس يهيمون بلا هدف، يكون، ويتوسلون إلى الآلهة من
أجل موتاهم.

بحث عن يساعده، ولم يجد سوى رجل وحيد فى
حالة ذهول شديد، وبدا عقله شاردا.
قال لنفسه: من الأفضل أن تمضى فى طريقك دون أن
تطلب العون. فهو يعرف "أكبار" كما لو كانت وطنه، وهو
قادر على توجيه نفسه رغم عجزه عن التعرف على أماكن
كثيرة اعتاد المرور بها.

فى الطرقات أصبحت الصرخات التى يسمعها أكثر
هدوءا وترباطا. فقد بدأ الناس يفهمون أن المأساة قد وقعت
ويجب عليهم التعامل معها.
صاح واحد: يوجد رجل مصاب هنا.

قال اخر : نحتاج مزيدا من الماء، وإلا لن نستطيع السيطرة على هذه النيران.

صاحت امرأة: ساعدوني! زوجي محاصر .
وصل إلى المكان حيث كان يعيش كصديق، منذ عدة شهور مضت.

كانت امرأة عجوز تجلس وسط الشارع، بالقرب من المنزل الذي يقصده، عارية تماما.

حاول "إيليا" أن يساعدها، لكنها دفعته بعيدا.
وصرخت المرأة العجوز: إنها تموت. إفعل شيئا. أبعد هذا الجدار عنها.

وبدأت تصرخ في هستيرية، فحملها "إيليا" بين ذراعيه ووضعها جانبا . ومنعه ضجيجها من سماع أنين المرأة.
كان كل شيء حوله قد تحطم، السقف والجدران تهاوت، وكان من الصعب أن يُعرف على المكان الذي راها فيه آخر مرة.

كانت السنة الذهب قد خمدت ، لكن ظلت الحرارة لا تطاق.

مشى على الأحجار التي غطت الأرضية، وذهب إلى المكان حيث توجد غرفة المرأة.

كان قادرا على تسمع أنينها رغم الهرج في الخارج، نعم هو صوتها.

نفض الغبار من فوق ملابسه، كما لو كان يسعى إلى تحسين مظهره. وظل صامتا في محاولة للتركيز. سمع طقطقة

النيران، وصرخات استجد لناس مدفونين تحت أنقاض المنازل المجاورة، وشعر برغبة ملحة في إخبارهم أن يصرخوا لأنه يجب عليه اكتشاف مكان المرأة وابنها.

بعد فترة طويلة سمع الصوت ثانية، شخص ما يخمش الخشب تحت قدميه. سقط على ركبتيه، وبدأ الحفر مثل من أصابه مس. أزال القذارة والأحجار والخشب، وقال: أتوسل إليك. لا تموتى.

سمع صوتها يقول: دع الأحجار فوقى، لا أريدك أن ترى وجهى. اذهب وساعد ابنى.

واستمر "إيليا" يحفر، وكررت طلبها: اذهب واعثر على جسد ابنى. أتوسل إليك نفذ ما أطلبه منك.

مال رأس "إيليا" على صدره وبكى، وقال: لا أعرف المكان المدفون به ابنك.

أتوسل إليك لا ترحلى. كم أتوق لبقائك معى. أحتاج أن تعلمينى كيف أحب، قلبى جاهز الآن.

قالت: قبل وصولك، تمنيت الموت طوال سنوات. ولا بد أنه سمعنى وجاء يبحث عنى. وانت.

عض "إيليا" شفثيه دون أن ينطق. عندئذ لمس شخص ما كتفه. جفل "إيليا" واستدار، فرأى الصبى. كان مغطى بالغبار والسناج، لكنه بدا سليما.

ساله الصبى: أين أمى؟

أجاب بصوت أمه من تحت الحطام: أنا هنا يا ولدى. هل أصبت؟

بكى الصبى ، فاحتضنه "إيليا".
قال الصوت الواهن : أتبكي يا ولدى. لا تفعل ذلك.
لقد استغرقت أمك وقتًا طويلاً لتعرف أن للحياة معنى، وأمل أن
أكون قادرة على تعليمك إياه. كيف حال المدينة التى ولدت
بها؟

ظل "إيليا" والصبى صامتين ، يحدق كلهما فى
الآخر.

قال "إيليا" كذبا : بخير. مات عدد قليل من المحاربين
، لكن الأشوريين انسحبوا . لقد جاءوا لينأروا من الحاكم لموت
أحد قادتهم.

خيم الصمت ثانية . وجاء صوت أضعف مما سبق:
قل لى إن مدينتى آمنة سالمة.
أدرك "إيليا" أنها ربما تموت عند أية لحظة، فقال لها:
المدينة سالمة، وابنك بخير.
سألته: وماذا عنك؟
قال: نجوت.

و عرف أنه بكلماته هذه يحرر روحها ويدعها تموت
فى سلام.

قالت المرأة بعد فترة : أطلب من ولدى أن يسجد على
ركبتيه ، وأريدك أن تقسم لى باسم الرب الإله.
قال: لك ما ترغين، أى شئ.
قالت: أخبرتنى ذات مرة أن الله موجود فى كل مكان،
وصدقتك. وقلت لى إن الروح لا تصعد إلى قمة الجبل
الخامس، وصدقتك كذلك. لكنك لم تبين لى إلى أين تذهب.

أما ما أريدك أن تقسم عليه فهو أنكما - أنت وطفلى - لن تبكيا من أجلى ، وأن كلا منكما سيعتنى بالآخر حتى يشاء الله لكما أن تعودا إليه.

ومن هذه اللحظة ستوحد روحى بكل ما عرفته على الأرض، وسأصبح أنا الوادى والجبال التى تحيط بالمدينة والداس التى تمشى فى الشوارع، أنا الجرحى والمتسولين ، حراس المدينة وكهنتها، تجارها ونبلاؤها. أنا الأرض التى يطأونها والبئر التى تروى ظمأهم.

لا تبكيا من أجلى ، فليس من سبب للحزن. من هذه اللحظة أنا "أكبار" .. المدينة الجميلة. خيم سكون الموت، وتوقفت الريح عن الهبوب.

ولم يعد "إيليا" يسمع الصرخات فى الخارج ولا طقطقة النار فى المنازل المجاورة، كل ما سمعه هو سكون الموت الذى يكاد يلمس من فرط كثافته.

أبعد "إيليا" الصبى، ومزق ملابسه وتوجه إلى السماء، وبكل ما فى رنتيه من هواء صاح: يا الله.. يا إلهى ! لأننى رحلت عن إسرائيل ولم أستطع تقديم نمانى مثلما فعل الأنبياء الذين مكثوا هناك، دعائى أصدقائى بالجبان، وبالخائن دعائى أعدائى.

وأكلت ما جلبته لى الغريبان، وعبرت الصحراء إلى صحرة ، التى يدعى سكانها بالأكبار ، وأرشدتني إلى حيث قابلت امرأة ، وتعلم قلبى أن يحبها.

ورغم ذلك لم أنس قط مهمتى الحقيقية ، فطوال الأيام
التي قضيتها هنا، كنت على استعداد دائم للرحيل.
والآن تحولت "أكبار" الجميلة إلى أطلال، المرأة التى
وثقت بى مدفونة تحتها. فأين اقترفت الخطيئة يا الله؟ ومتى
تخليت عما طلبته منى؟

وإذا كنت غير راض عني، فلماذا لا تأخذنى من هذا
العالم، ولا تعذب ثانية الذين أوونى وأحبونى.
لا أفهم تدابيرك. وأرى أفعالك تخلو من العدل.
لقد تحملت كل المعاناة التى فرضتها على، وأنا
ضعيف وغير كفء، فأنزع النفس منى، لأننى تحولت إلى
أطلال ونار وغبار.

وبين النار والدمار، ظهر النور إلى "إيليا"، ورأى
ملك الله أمامه.

سأله "إيليا": لماذا أنت هنا؟ ألا ترى أن الوقت متأخر

جدا؟

قال الملك : جئت لأقول لك ثانية إن الله سمع صوتك
وتوسلك ، ولن تسمع صوت الملك بعد ذلك، ولن أقابلك ثانية
حتى تأتى أيام المحاكمة.

أمسك "إيليا" يد الصبى، وسارا بلا هدف.
وكان الدخان، قبل أن تشتته الرياح، قد تكاثف فى
الشوارع مما جعل الهوام صعبا تنفسه.
"قد يكون حلما أو كابوسا" هكذا ظن إيليا.
قال الصبى: لقد كذبت على أُمى. المدينة نمرت.

قال : ماذا يهم في ذلك؟ فإذا كانت لم تر ما دار حولها، فلماذا لا تدعها تموت في سلام؟

قال الصبى: لأنها وتقت بك، ولأنها قالت إنها "أكبار".

جرح "إيليا" قدمه على قطع زجاج وخزف مكسورة .

أثبت له الألم أنه لم يكن يحلم .

فقد كان كل شئ حوله حقيقيا لأقصى درجة .

وصلوا إلى الساحة حيث - منذ متى؟ - اعتاد أن يلتقى بالناس ويساعدهم ليحلوا نزاعاتهم وبدت السماء كما لو كانت تبرق من السنة الذهب .

قال الصبى بإصرار: لا أريد أن تكون أُمى ما أنظر إليه الآن.

لقد كذبت عليها.

وحاول الصبى أن يحفظ قسمه ، ولم ير "إيليا" دمعة واحدة على وجهه.

قال "إيليا" لنفسه: ماذا أستطيع أن أفعل؟ كانت قدماه تنزفان ، وقرر التركيز على الألم ليدفع عن رأسه الشعور باليأس.

نظر إلى الجرح الذى سببه السيف الأشورى فى جسده، ولم يجده عميقا كما تخيل.

جلس والصبى فى نفس البقعة حيث أحاط به الأعداء فيها وأنقذه خائن.

لاحظ أن الناس توقفوا عن الجرى، وساروا ببطء من مكان لآخر ، بين الدخان والأطلال والغبار، كما لو كانوا

الموتى الأحياء . وبدوا مثل أرواح طردت من السماء، وحكم عليها أن تهيم في الأرض إلى الأبد. ولا شئ له معنى. ورغم ذلك حاول البعض التعامل مع المؤلف، وحاولوا تلبية صحاح النسوة، والأوامر المضطربة للجنود الناجين من المذبحة.

لكنهم كانوا قلة ، ولم يحققوا نتائج تذكر. ذات مرة قال كبير الكهنة: إن العالم ما هو إلا الحطم الجماعي للآلهة.

ماذا لو كان حق؟ هل يستطيع إيقاظ الآلهة من هذا الكابوس، ثم يجعلها تنام ثانية لتحلم حلما لطيفا؟

فعندما كان "إيليا" رؤى ليلية، دائما كان يستيقظ ثم ينام من جديد، فلماذا لا يحدث نفس الشئ مع خالقى الكون؟ تعثر "إيليا" في أجساد الموتى. وقال لنفسه: هم الآن غير منشغلين بضرورة دفع الضرائب، ولا بمعسكرات الأشوريين في الوادي، ولا بالشعائر الدينية أو بوجود نبى هائم، ربما تحدث إليهم ذات يوم.

لا أستطيع البقاء هنا إلى الأبد، فكل ما تركته لى هو هذا الصبى، وسأكون جديرا بالاعتناء به حتى ولو كان هذا آخر شئ أفعله على سطح الأرض.

وبصعوبة شديدة وقف وأمسك يد الصبى، وسارا. كان الناس يسلبون المتاجر والخيام التى تحطمت. ولأول مرة حاول التعامل مع ما يحدث، فطلب منهم أن يكفوا عما يقترفونه.

لكن الناس دفعوه جانبا وقالوا : نحن نأكل بقايا ما
بدهه الحاكم. ابتعد عن طريقنا. ولم يكن لدى "إيليا" القوة
اللازمة لمناقشتهم فقاد الصبي إلى خارج المدينة وسارا عبر
الوادي، حيث لا أمل في ظهور الملائكة بسيوفها النارية.
قال "إيليا" : القمر بدر.

فبعيدا عن الغبار والدخان استطاع رؤية الليل وقد
أضاءه القمر. وقبل ساعات عندما حاول مغادرة المدينة إلى
أورشليم، كان قادرا على رؤية طريقه بدون صعوبة، لقيام
المسكرات الأشورية بنفس دور القمر.
تعثر الصبي في جسد وصرخ . كان الجسد كبير
الكهنة، وقد قطعت يداه ورجلاه، لكنه كان ما زال حيا. كانت
عيناه معلقتين بقمم الجبل الخامس.

قال كبير الكهنة بصوت هادئ وواهن: كما ترى . لقد
كسبت الآلهة الفينيقية المعركة المقدسة . وكان الدم ينبثق من
فمه.

قال "إيليا" : دعنى أنهى ألامك.
قال كبير الكهنة: لا أهمية للألم، مقارنة بنشوة أننى
أديت واجبى.

تسأل "إيليا" دهشا: أكان واجبك تدمير مدينة الناس
الصالحين؟

قال كبير الكهنة : المدينة لم تمت، فقط مات سكانها
وما يحملونه من أفكار .

و ذات يوم سيأتى اخرون إلى "أكبار"، يشربون
مياها. والأحجار التى تركها أصحابها. سيأتى كهنة اخرون
لينظفوها ويعتوتوا بها.

اتركنى الان، سينتهى ألمى قريبا بينما يأسك سيلازمك
طوال حياتك.

كان الجسد المشوه يتنفس بصعوبة ، عندما تركه "إيليا"
ورحل.

عند هذه اللحظة ، أقبلت جماعة - رجال ونساء
وأطفال - تجرى باتجاه "إيليا"، وأحاطت به. صرخوا: أنت
المسئول . لقد جلبت العار على وطنك واللعنة على مدينتنا .

قال "إيليا" : ربما تشهد الآلهة على هذا! وربما تعرف
من الذى يجب توجيه اللوم إليه. دفعه الناس، وهزوه من كتفيه
- انسل الصبى من يديه واختفى.

لكمه البعض فى وجهه وصدره وظهره . ورغم ذلك
كان الصبى هو كل ما فكر فيه، لأنه لم يستطع إيقاءه إلى
جانبه.

لم يستمر الضرب لفترة طويلة ، ربما لأن المعتدين
أنفسهم ضجروا من العنف الشديد. وسقط "إيليا" على الأرض.
قال شخص ما: ارحل عن هذا المكان. لقد قابلت حبنا
بالكراهية.

انسحبت المجموعة. ولم يكن لدى "إيليا" ما يكفى من
القوة ليقف على قدميه وعندما أفاق وأدرك ما لحق به من
عار، قرر ألا يظل نفس الإنسان.

لم يكن لديه حب، كره ، أو إيمان.

• • •

استيقظ على شخص ما يلمس وجهه. والوقت ما زال
ليلا لكن القمر غاب عن السماء.
قال الصبي: لقد وعدت أمي أنني سأعتني بك، لكنني
لم أعرف ماذا أفعل.
قال "إيليا": عد إلى المدينة . الناس هناك طيبون ،
وبالتأكيد سيستضيفك شخص ما.
قال الصبي: أنت مصاب. يجب أن أظل إلى جوارك.
فربما يأتي ملاك ويخبرني بما أفعله .
صاح "إيليا": أنت جاهل ، ولا تعرف شيئا عما يحدث.
لن تأتي ملائكة بعد الآن، لأننا مجرد بشر عابدين، وكل
مخلوق ضعيف عندما يواجه الألم.
ولهذا عندما تقع كارثة، دع الناس يناضلون لإنقاذ
أنفسهم.

وأخذ "إيليا" شهيقا عميقا، محاولا تهدئة نفسه، فلم يعد
ثمة طائل من استمرار الجدل.. وسأل الصبي: كيف اهتديت
للطريق إلى هنا؟

قال الصبي: لم أرحل أبدا.
قال "إيليا": إذن - رأيت ما لحق بي من عار. رأيت
أنه لم يتبق لي ما أفعله في "أكبار".
قال، الصبي : لقد أخبرتني أن كل معاركنا في الحياة
تعلمنا شيئا ما، حتى تلك المعارك التي تخسرها.

تذكر "إيليا" سيرهم حتى البئر، صباح أمس. وبدأ الأمر كما لو أن سنينا قد مرت منذ ذلك الوقت. وشعر برغبة ملحة في أن يخبره بأن هذه الكلمات الجميلة لا تعنى شيئا عندما يواجه المرء الألم، ولكنه قرر ألا يضايق الصبي. سألته "إيليا": كيف نجوت من النار؟

خفض الصبي رأسه وقال: لم أكن قد نمت. قورت أن أظل مستيقظا طوال الليل، لأرى هل ستلتقي وأمي في حجرتها. عندئذ رأيت أول الجنود وهو قادم إلينا. نهض "إيليا" وسار. كان يبحث عن الحجر الموجود أمام الجبل الخامس حيث جلس والمرأة يشاهدان الغروب.

همس لنفسه: يجب أن أرحل. إذا بقيت سآزداد ياسا. لكن قوة ما سحبت في هذا الاتجاه. وعندما وصل هناك بكى بمرارة مثل مدينة "أكبار"، وكان الحجر موجودا يشير إلى المكان، وهو الوحيد في هذا الوادي الذي يستشعر قيمته، ولن يمتدحه السكان الجدد أو يتألق بوجود زوجين اكتشفا معنى الحب.

لحتضن "إيليا" الصبي، ونام ثانية.

"أنا جائع وظمآن" قال الصبي لإيليا بعد استيقاظه مباشرة.

قال "إيليا": تستطيع الذهاب إلى منزل أحد الرعاة الذين يعيشون بالجوار . فلقد كانوا محظوظين ولم يصيبهم مكروه لأنهم لا يعيشون في "أكبار".
قال الصبي: نحتاج أن نعيد بناء أكبار. أمي قالت إنها "أكبار".

قال "إيليا": أية مدينة ؟ لم يعد هنا قصر، سوق، جدران. وشعب المدينة الطيب تحول إلى لصوص، وجنودها اليافعون ذبحوا.

وكذلك لن تعود الملائكة ، رغم أن هذا الأمر أصبح أقل مشكلاته أهمية.

"هل تظن أن ما حدث أمس من دمار ومعاينة وموت له معنى؟ وهل تظن أنه كان ضروريا أن تنمر حياة الاف لتعليم شخص ما .. شيئا ما؟"

.. سأل الصبي وهو ينظر إليه كمن يحاول تنبيهه.
قال إيليا: دعك من كل ما قلته لك. سنبحث الآن عن

راع.

قال الصبي - بإصرار - : وسنعيد بناء المدينة.
لم يرد "إيليا". وأدرك أنه لن يستطيع - بعد الآن -
استخدام سلطته على الناس، هؤلاء الذين اتهموه بأنه جلب
اللجنة معه. فالحاكم هرب، والقائد مات، وعما قريب قد تسقط
صيدا وتاير تحت سطوة الاحتلال الأجنبي.
... ربما تكون المرأة على حق، فالآلهة دائمة التغيير.
وفى هذا الوقت ربما يكون "الله" هو من رحل.

سأله الصبي ثانية : متى سنعود إلى هنا؟
أمسكه "إيليا" من كتفيه ، وهزه بعنف، وقال له:
انظر وراءك ! أنت لست مجرد ملاك أعمى بل صبي
تعتمد التجسس على أفعال أمه. ماذا رأيت؟ هل لاحظت أعمدة
الدخان المتصاعدة؟ هل تعرف ما الذى يعنيه هذا؟
صرخ الصبي: أنت تؤلمنى! أريد الرحيل عن هنا،
أريد الرحيل.
توقف "إيليا"، وشعر بالارتباك. فهو لم يتصرف قط
بهذه الطريقة.

.. أقلت الصبي منه وجرى نحو المدينة.
لحق به "إيليا"، وسجد عند قدميه وقال: سامحنى، لم
أع ما فعلته وكان الصبي يثبج، لكن بلا دمعمة واحدة على
خديه.

جلس "إيليا" جواره منتظرا أن يستعيد هذوعه.
قال "إيليا" له: لا ترحل. لقد وعدت أمك وهى تلفظ
أنفاسها الأخيرة، أنا سنظل معا حتى تتمكن من الاعتماد على
نفسك.

قال الصبى: وكذلك أقسمت بأن المدينة سالمة. وقالت
لك: ...

قال "إيليا": لا حاجة لتكرار ما قالته. أنا مشوش وتائه
فى ذنبى.

امنحنى الوقت لأجد نفسى، فلم أقصد إيناءك.
عانقه الصبى، دون أن تذرف عيناه دمعة واحدة.

* * *

وصل "إيليا" إلى منزل فى منتصف الوادى. وكانت
ثمة امرأة تجلس عند الباب، وطفلان يلعبان أمامها. وكان ثمة
قطيع بالقرب منهم، مما يعنى أن الراعى لم يرحل إلى الجبال
هذا الصباح.

جفلت المرأة، وتابعت الرجل والصبى وهما قادمان
نحوها. وودت لو تستطيع إيعادهما فى الحال، لكن العادات -
والآلهة - تلزمها باحترام قانون الضيافة الكونى. فلماذا لم
تستضيفهما الآن، قد يواجه طفلاها نفس المصير. قالت المرأة:
لا نقود معى. لكننى أستطيع منحكما قليلا من الماء وشيئا
تأكلانه. جلسا فى شرفة صغيرة مسقوفة بالقش، وأحضرت
لهما فواكه جافة وإناء ماء. أكلا فى صمت، مجريبين، لأول
مرة منذ أحداث مساء أمس، شيئا من الاعتياد الذى اتسمت به
حياتهما اليومية.

واختبأ الطفلان داخل المنزل لخوفهما من ظهور
الغريبين.

وعندما انتهيا من تناول طعامهما، سأل "إيليا" عن
الراعى.

قالت المرأة : سيحضر عما قريب. فهذا الصباح
سمعنا جلبة شديدة، وجاءنا شخص ما، وأخبرنا أن "أكبار" قد
دمرت، فذهب ليرى ما حدث.

نادى الأطفال عليها، فنخلت إليهما.

قال "إيليا" لنفسه : لا فائدة من محاولة إقناع الصبى.
فهو لن يتركنى لحالى حتى أنفذ له كل ما يطلبه. يجب أن
أظهر له كم هذا مستحيل ، وفى هذه الحالة فقط يمكن استمالته
واقناعه.

كان للطعام والشراب فعل السحر فى "إيليا" ، فاستعاد
انتباهه وشعوره بأنه جزء من هذا العالم. تدنفت أفكاره بسرعة
مذهلة تبحث عن الحلول، لا عن الإجابات.

* * *

بعد فترة عاد الراعى العجوز. تأمل الرجل والصبى
بخوف لاهتمامه بأمر عائلته. لكنه سرعان ما أدرك ما كان
يحدث، وقال: لا بد أنكما لاجئان من "أكبار".

فأنا عائد لتوى من هناك.

سأله الصبى: وماذا يحدث هناك؟

قال الراعى : المدينة دمرت، والحاكم هرب . لقد
أصابته الآلهة العالم باضطراب.

قال "إيليا" : لقد فقدنا كل شيء، ونطلب منك أن تستضيفنا.

قال الراعى: أظن زوجتى استضافتكما وأطعمتكما. والآن يجب أن ترحلا لتواجهما مصيركما المحتوم.

قال "إيليا" : لا أعرف كيف أتعامل مع الصبى. أنا فى حاجة ماسة للمساعدة.

قال الراعى: بالطبع أنت تعرف. فهو صغير ويبدو ذكيا ونشيطا. وأنت لديك خبرة رجل عرف الانتصارات والهزائم فى حياته. وهذه التوليفة مثالية لأنها ستساعدك فى العثور على الحكمة. ونظر الرجل إلى الجرح فى ذراع "إيليا"، وقال إنه ليس جرحا خطيرا. ودخل المنزل ثم عاد ببعض الأعشاب وقطعة قماش، وعاون الصبى فى وضع الضمادة على جرح "إيليا". وعندما قال الراعى إنه يستطيع القيام بهذا العمل بمفرده، قال الصبى إنه وعد أمه برعاية هذا الرجل. ضحك الراعى وقال: اينك رجل يصون وعده.

قال الصبى: لست ابنه. وهو كذلك رجل يصون وعوده، فهو سيعيد بناء المدينة لأنه يجب أن يعيد أسمى للحياة كما فعل معى.

فجأة - أدرك "إيليا" سر اهتمام الصبى بالمدينة، لكنه قبل أن يفعل أى شيء نادى الراعى زوجته التى خرجت من المنزل فى هذه اللحظة، وقال لها: من الأفضل أن نبدأ بإعادة بناء المدينة من الآن، سوف يستغرق هذا وقتا طويلا حتى يعود كل شيء إلى حاله.

قال "إيليا" : لن أعود قط.

قال الراعى : تبدو مثل شاب حكيم، وتستطيع إدراك أشياء كثيرة أعجز أنا عن إدراكها . لكن الطبيعة علمتني شيئا لن أنساه أبدا، على الرجل الذى يعتمد على الطقس والقصول - مثلما يفعل الراعى - أن يحاول النجاة عند مواجهة مصيره المحتوم . فهو يعتنى بقطيعه ، ويتعامل مع كل حيوان كما لو أن لا وجود لسواه، ويحاول مساعدة الأمهات وصغارها، ولا يبتعد عن المكان الذى تستطيع الشرب منه. ومن حين لآخر قد يموت أحد الحملان، التى منحها الكثير من اهتمامه فى حادثة.. وقد يكون ذلك بسبب ثعبان، حيوان مفترس أو حتى المسقوط من فوق جرف صخرى. ومما لا شك فيه أن المصير المحتوم لا بد يقع.

نظر "إيليا" تجاه "أكبار"، وتذكر محادثته مع الملاك والذى انتهت بأن المصير المحتوم لا بد يقع.

قال الراعى: تحتاج للنظام والصبر كي تتغلب عليه.

قال "إيليا": والأمل. فعندما يصبح لا وجود له، قد يهدر المرء طاقته فى قتال المستحيل.

قال الراعى: المسألة ليست الأمل فى المستقبل، بل إعادة خلق ماضيك الخاص.

ولم يعد الراعى فى عجلة من أمره، فقد امتلأ قلبه بالشفقة على اللاجئين اللذين يقفان أمامه. ولن تكلفه مساعدتهما شيئا ، خاصة وقد نجا وأسرته من المأساة ويجب أن يشكروا الإلهة على ذلك.

بالإضافة إلى أنه سمع عن النبي الإسرائيلي الذى تسلق الجبل الخامس دون أن تحرقه نيران السماء، وكل شئ يؤكد أنه الرجل الواقف أمامه.

قال الراعى: تستطيع البقاء ليوم واحد إذا رغبت.
قال "إيليا" : لم أفهم ما قلته منذ قليل عن إعادة خلق الماضى الخاص.

قال الراعى: مر على كثير من الناس وهم فى طريقهم إلى صيدا وتأير. واشتكى بعضهم من الإخفاق فى تحقيق شئ يذكر فى "أكبار"، يعيشون فى خوف، بلا ثقة فى أنفسهم تمكنهم من المجازفة.

وعلى الجانب الآخر، مر ببابى ناس فى غاية الحماس. تكسبوا فى كل لحظة من وجودهم فى "أكبار"، وبذلوا مجهودا كبيرا ليخروا الأموال اللازمة لرحلتهم هذه. بالنسبة لهؤلاء الناس، الحياة انتصار دائم، حتما سيحققونه.

وعاد هؤلاء الناس أيضا، لكن بحكايات رائعة. لقد حققوا كل شئ رغبوا فيه لأنهم لم تعوقهم إحباطات الماضى.

• • •

مست كلمات الراعى قلب "إيليا".

وأكمل الراعى: ليس صعبا إعادة بناء حياة ما، تماما مثلما ليس من المستحيل إعادة أكبار إلى الوجود من وسط كل هذا الحطام. يكفى الانتباه إلى أننا نستمع بنفس القوة التى كانت لدينا فى الماضى. ويجب استخدام هذا لصالحنا.

وحدق الرجل فى عينى "إيليا" وقال : فإذا كان لديك
ماض لا يرضيك ، انسه الآن، لقد مضى. وتخيل قصة جديدة
عن حياتك، وأمن بها.

ركز فقط على هذه اللحظات التى حققت فيها ما
رغبت، وستساعدك هذه القوة على تحقيق ما ترغب.
قال "إيليا" لنفسه: كانت هناك لحظة رغبت فيها أن
أصبح نجارا، وفيما بعد رغبت أن أكون نبيا بعث لإنقاذ
إسرائيل. وهبطت الملائكة من السماء، وتحدث الله إلى حتى
أدركت أنه ليس عادلا، وأن دوافعه دائما تفوق قدرتى على
الإدراك.

نادى الراعى زوجته، وقال لها إنه لن يرحل، فلقد
وصلتوا من أكبار سائرا، ولا طاقة عنده ليمشى أكثر.
قال "إيليا": أشكرك لاستضافتنا.
قال الراعى: ليس ثمة ما يضجر فى إيوائك الليلة
واحدة.

قاطع الصبى المحادثة وقال: نريد العودة إلى "أكبار".
قال الراعى: انتظر للصباح. فالمدينة ينهبها سكانها
ولا مكان للنوم بها.
نظر الصبى إلى الأرض، وعض شفته محاولا منع
الدموع.

وقادهما الراعى إلى داخل المنزل، وهذا من روع
زوجته وطفليه، وأمضى بقية اليوم يتحدث عن الطقس ليلهمهم.

فى اليوم التالى اسبتيقظ مبكرا، وتناولوا الطعام الذى
 أعدته زوجة الراعى، ثم خرجوا إلى باب البيت.
 قال "إيليا" لينعم الله عليك بعمر مديد، ويقطيع يكبر
 ويزيد. لقد أكلت ما احتاجه جسدى، وتعلمت روحى أنها ما
 زالت تجهل الكثير. ليحفظ لك الرب ما فعلته لأجلنا، ويحمى
 ولدك أن يصبحا غريبين فى أرض غريبة.
 قال الراعى بفضاطة: لا أعرف إلى أى رب تتوجه،
 هناك آلهة كثيرة تعيش فى الجبل الخامس. لكنه سرعان ما
 غير نبرة صوته وقال: تذكر ما فعلته من أشياء صالحة،
 ستمنحك الشجاعة.
 قال "إيليا": لم أفعل سوى القليل، وجميعها لا علاقة
 لها بقدراتى.
 قال الراعى: إذن حان الوقت لتفعل المزيد.
 قال "إيليا": ربما كان فى استطاعتى أن أمنع الغزو.

ضحك الراعى، وقال: حتى لو كنت حاكم "أكبار"، لم تكن لتستطيع أن تمنع المصير المحتوم.

قال "إيليا": ربما كان على حاكم "أكبار" أن يباغت الأثوريين عند وصولهم إلى الوادى فى قوات صغيرة، أو كلن عليه التفاوض من أجل السلام قبل نشوب الحرب .

قال الراعى: كل شئ كان حدوثه ممكنا ولم يحدث ، ستندروه الرياح بعيدا ولن يترك خلفه أثرا. فالحياة تصنع بما نأخذه من مواقف ، وهناك أشياء بعينها تجبرنا الآلهة أن نحيا فى وجودها. ودافعها لذلك غير مهم، وليس فى إمكاننا القيام بشئ لتجنبها .

قال "إيليا": لماذا؟

قال الراعى: سل النبى الإسرائيلى الذى عاش فى "أكبار". فهو يبدو كما لو كان عنده إجابة لكل شئ.

اتجه الراعى إلى سياج الشرفة وقال: يجب أن أخذ قطيعى للرعى. فأمس لم أخرج به، وخرافى لا تطيق صبرا، ولوح لهم قبل أن يرحل وقطيعه.

سار الصبى و "إيليا" عبر الوادى.
قال الصبى: أنت تمشى ببطء، أنت خائف مما سيحدث لك.

إجابة "إيليا": لا أخاف سوى نفسى. لن يستطيعوا
إيذاؤى لأن قلبى لم يعد موجودا.
قال الصبى: الإله الذى أعادنى من الموت للحياة ما
زال موجودا، ويستطيع إعادة أمتى كذلك، إذا ما فعلت نفس
الشئ بالمدينة.

قال "إيليا": إنس أمر هذا الإله. فهو بعيد ولن يقوم
بالمعجزة التى نأملها منه.

كان الراعى العجوز على حق، فمن هذه اللحظة لا بد
أن يعيد بناء ماضيه، وينسى ظنه بأنه نبي وسيحرر إسرائيل،
لكنه فشل فى مهمته لإنقاذ مدينة واحدة.

منحه التفكير بهذه الطريقة شعورا بالانتعاش، فألح
مرة فى حياته يشعر أنه حر، ومهيأ للقيام بأى شئ يرغبه فى
أى وقت يود.

حقاً، لن يسمع أية ملائكة بعد الآن، لكنه نسي مقابله ذلك أصبح حراً في العودة إلى إسرائيل، والعمل كنجار، والسفر إلى اليونان لتعلم أفكار الفلاسفة، أو الإبحار مع البحارة الفينيقيين إلى أراضى ما وراء البحار.

بداية ، لابد أن يثار لنفسه. فلقد كرس سنوات شبابه لإله غير مبال، يأمر فقط، ودائماً يفعل أشياء بأسلوبه الخاص. وقد تعلم "إيليا" تقبل كل قراراته واحترام كل تدابيريه. لكن إخلاصه هذا كوفئ بالطرد، وتم تجاهل سنوات عمره، وما بذله من جهود في عبادة هذا الإله، وكانت النتيجة موت المرأة التى لم يحب غيرها أبداً.

قال "إيليا" بلغته القومية ، حتى لا يفهم الصبى كلامه: "لك قوة العالم والنجوم، وتستطيع تدمير مدينة، بلد ، كما ندمر الحشرات. فأرسل، إذن، النار من السماء وأنه حيايتى، لأنك إذا لم تفعل ذلك فساكون ضد كل شئ من صنعك".

بنت "أكبار" من بعيد، فأمسك الصبى من يده وأطبق عليها بإحكام وقال:

من هذه اللحظة وحتى نغير بوابات المدينة، سأمسير بعينى مغلقين، ويجب أن ترشدنى. وإذا مت فى الطريق، افعل ما طلبته منى، أعد بناء "أكبار" حتى لو تطلب ذلك أن تنتظر حتى تصل إلى مرحلة الشباب وتتعلم قطع الأشجار واستخدام الأحجار .

لم يرد الصبى. أغمض "إيليا" عينيه. وترك نفسه ليقوده الصبى. وسمع هبوب الرياح ووقع خطاه على الأرض.

تذكر "موسى" الذى بعد أن حرر الشعب المختار وقادهم عبر الصحراء مواجهها صعوبات لا حصر لها، حرم الرب عليه أن يدخل "كنعان" وعندها قال موسى:

"وتضرعت إلى الرب فى ذلك الوقت قائلا. دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان ، لكن الرب غضب على بسببكم ولم يسمع لى بل قال لى الرب" كفاك. لا تعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر. اصعد إلى رأس الفسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الأردن".

وهكذا كافأ الرب حماسة موسى وإيمانه للمهمة، بعدم السماح له بأن يطأ الأرض الموعودة. فماذا كان سيحدث لو عصى موسى؟

وتوجه "إيليا" بأفكاره إلى السماء - ثانية - وقال:

"يا إلهى، لم تكن هذه المعركة بين الآشوريين والفينيقيين، بل كانت بينك وبينى. ولم تطلعن على حربنا هذه، وكما هو الحال منذ الأزل، انتصرت ونفذت مشيئتك . لقد دمرت المرأة التى أحببتها والمدينة التى أوتى عندما كنت بعيدا عن وطنى.

وكان دوى الرياح يتزايد فى أذننى "إيليا" فازداد خوفه، لكنه استمر فى مناجاته: ولن أستطيع إعادة المرأة للحياة، لكننى أستطيع تغيير المصير الذى فرضه هذا الدمار، فاقطنى الآن، لأنك إذا سمحت لى بالوصول إلى أبواب المدينة؛ سأعيد بناء هذه المدينة التى أردت محوها من فوق وجه الأرض.

وسأعمل ضد مشيئتك.
وصمت "إيليا" بعد أن أفرغ ذهنه ولم يعد فى وسعه
سوى انتظار الموت.
ولو قد طویل لم یرکز على شئ أكثر من وقع قدمیه
على الرمال، فلم یرغب فى سماع أصوات الملائكة أو
تهديدات السماء.
كان قلبه قد تحرر، ولم يعد یخشى ما قد یحل به. وفى
أعماق روحه ثمة قلق یتزايد كما لو كان قد نسی شيئاً ذا
أهمية.
بعد وقت طویل توقف الصبی، وضغط على ذراع
"إيليا" وقال: لقد وصلنا. فتح "إيليا" عينیه، ولم تكن نار السماء
قد سقطت علیه، فرأى أمامه أطلال الأسوار المحیطة "بأكبار".

تأمل "إيليا" الصبى الذى كان قابضاً على يده كما لو
 كان يخشى فراره. هل أحبه؟
 لا يعرف شيئاً عن هذا. لكن مثل هذه الأشياء يمكن
 تأجيلها ، فلديه مهمة يجب عليه القيام بها. المهمة الأولى التى
 لم يفرضها الرب عليه.
 ومن المكان حيث وقف، كان يستطيع أن يشم رائحة
 الحريق.

وكانت الطيور آكلة الجيف تحلق فوق الرؤوس ، فى
 انتظار اللحظة المواتية للهجوم على جثث الحراس الملقاة
 متعفنة فى الشمس. اقترب "إيليا" من جثث أحد الجنود والنقط
 السيف من غمده. ففى الاضطراب الذى ساد الليلة السابقة،
 نسى الآشوريون أن يجمعوا الأسلحة ويحملوها خارج المدينة.

سأله الصبى: لماذا تريد هذا السيف؟

أجابه "إيليا" : لأدافع عن نفسى.

قال الصبى: لم يعد للآشوريين وجود بعد الآن.

قال "إيليا" : لا يهم. فمن الأفضل أن أحمل سيفاً معي،
يجب أن نكون متأهبين. وارتعشت نبرة صوته. فمن المستحيل
معرفة ما قد يحدث منذ اللحظة التي عبر فيها الآشوريون من
الجدار الذي تحطم نصفه. ورغم ذلك كان مستعداً للقتل من
تسول له نفسه أن يقهره.

قال للصبي: مثل هذه المدينة، تحطمت أنا أيضاً.
لكنني - مثل المدينة - لم أنه مهمتي بعد.

ابتسم الصبي وقال: نتحدث بالطريقة التي اعتدتها.
قال "إيليا" : لا تجعل الكلمات تخدعك. فيما مضى كان
هدفى إبعاد إيزابيل عن العرش وإعادة إسرائيل إلى حظيرة
الرب . والآن يجب أن ننسى ما نسينا، مهمتي هي تنفيذ ما
طلبته مني.

نظر إليه الصبي بحذر وقال: بدون الرب لن تعود
أمي من الموت.

مسح "إيليا" شعر الصبي بيده، وقال : فقط - جسد أمك
هو الذي تلاشى لكنها ما زالت بيننا، وكما أخبرتنا أصبحت
"أكبار". ويجب أن نساعدنا لتستعيد جمالها.

* * *

أصبحت المدينة شبه مهجورة . فقط كان الحائز
والنسوة والأطفال يهيمنون بلا هدف في شوارع المدينة، في
تكرار لمشهد شهدوه ليلة الغزو.
وبدوا غير متأكدين مما سيفعلونه بعد ذلك.

وكلما مر "إيليا" على شخص ما، لاحظ الصبى أنه
يقبض على مقبض سيفه. أما الناس فكانوا مختلفين فى ردود
أفعالهم، غالبيتهم تعرفوا عليه.
وكان البعض يومئ له، لكن دون أن يوجهوا له كلمة
واحدة، ولو حتى كلمة تدل على الكراهية.
قال "إيليا" لنفسه: لقد فقدوا حتى الشعور بالغضب.
ونظر إلى قمة الجبل الخامس حيث تغطى السحب اللانهائية
نروته. وعندئذ استعاد كلمات الرب:
"والقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم أنفسى.
وأصير مدنكم خربة وأوحش الأرض. والباقون منكم ألقى
الجبانة فى قلوبهم ويهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون
كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد".

”تمجد اسمك يا إلهي، لما قدرت. لقد حفظت وعدك.
وها هم الموتى الأحياء ما زالوا يسعون في الأرض .
واختيرت "أكبار" لتأويهم".

استمر "إيليا" والصبي في طريقهما إلى الساحة
الرئيسية، وهناك جلسا يستريحا على قطعة حجر، بينما
يحصون ما يحيط بهم.

بدا الدمار أشد مما ظن، فلقد انهارت أسقف معظم
المنازل، وغطت القذارة والحشرات كل شيء.

قال "إيليا" يجب إزالة جثث الموتى وإلا سينتشر
الطاعون في المدينة .

وظل الولد مطرقا ينظر إلى الأرض.

قال "إيليا": ارفع رأسك. هناك الكثير يجب أن تقوم به،
حتى تشعر أمك بالقناعة والاطمئنان.

لكن الولد لم يطعمه. لقد أدرك أنه في مكان - ما - بين هذه الأطلال يوجد جسد أمه الذي جاء به إلى الحياة. وأصبح هذا الجسد في حالة مشابهة لكل الجثث المنتشرة في المدينة. لم يصر "إيليا" على طلبه. وقف ثم حمل جثة على كتفيه ووضعها في منتصف الساحة. ولم يستطع أن يتذكر القواعد التي فرضها الله عند دفن الموتى، فكل ما كان يهدف إليه هو منع الطاعون من اجتياح المدينة، ولهذا كان حرق هذه الجثة هو الحل الوحيد.

عمل لبقية الصباح، ولم يتحرك الصبي من مكانه أو يرفع عينيه للحظة، لكنه حافظ على وعده لأمه، ولم تسقط دمة واحدة على أرض "أكبار".

توقفت امرأة، ووقفت لبعض الوقت تراقب ما يبذله "إيليا" من جهد .

وقالت: "الرجل الذي كان يحل مشاكل الأحياء، الآن يرص أجساد الموتى".

سألها "إيليا": أين رجال مدينة "أكبار"؟

قالت المرأة: رحلوا، وأخذوا معهم القليل الذي تبقى . لم يعد يوجد ما يستحق البقاء. أما الذين لم يغادروا المدينة فهم غير القادرين على الرحيل، للعجائز والأرامل والأيتام.

قال "إيليا": لكنهم عاشوا هنا منذ أجيال. ولا يجب أن يستسلموا بهذه البساطة.

قالت المرأة : حاول أن تشرح ذلك لشخص ما فقد كل شيء.

قال "إيليا": ساعديني. وحمل جثة أخرى على كتفيه ليضعها على كومة الجثث، وأردف: سوف نحرقها، حتى لا يزورنا إله الطاعون، فرائحة اللحم المحروق ترعبه. قالت المرأة: دع إله الطاعون يسأني، لعله يحصل أرواحنا سريعاً.

استمر "إيليا" في أداء مهمته. جلست المرأة جوار الصبي ترأب ما كان "إيليا" يفعله. وبعد فترة اقتربت منه وسألته: لماذا ترغب في حماية هذه المدينة البائسة؟ قال "إيليا" إذا توقفت عما أقوم به ، سيعنى هذا أنني غير قادر على إنجاز ما أرب. كان الراعي العجوز على حق. فالحل الوحيد هو نسيان ماض من عدم اليقين، وابتداع تاريخ جديد. فالنبي السابق مات مع المرأة في النيران التي اشتعلت بمنزلها، وهو الآن رجل بلا إيمان بالرب وتجاهه الشكوك. لكنه ما زال حياً حتى بعد تحديه للجزاء الإلهي. وإذا رغب أن يكمل هذا الطريق؛ يجب أن يقوم بما اعتزمه. اختارت المرأة أحد الجثث خفيفة الوزن وسحبته من كعبيها إلى الكومة التي جمعها "إيليا"، وقالت: ليس خوفاً من إله الطاعون، ولا من أجل "أكابر"، فسرعان ما سيعود الآشوريون، بل من أجل هذا الصبي الجالس هناك برأس "منكس"، يجب أن يتعلم أن الحياة ما زالت أمامه. قال "إيليا" شكراً لك.

قالت المرأة: لا تشكرني. في مكان ما بين هذا الحطام سجدت جثة ابني، كان في نفس عمر هذا الصبي تقريباً. ورفعت

ذراعها إلى وجهها وبكت بحرقة، فأخذها "إيليا" بين ذراعيه فى لطف شديد وقال لها: الألم الذى تشعر به لن يزول أبداً، لكن العمل سيساعدنا على احتماله. ليس لدى المعاناة القوة لتجرح جسدا أصابه الإرهاق والضجر.

وأَمْضيا بقية اليوم فى أداء المهمة البشعة لجمع وتكوين أجساد الموتى، وأكثرهم من الشباب الذين ظنهم الأشوريون جزءاً من جيش المدينة.

وكثيراً ما تعرف على أصدقاء بين هذه الجثث، لكنه لم يتوقف عن أداء مهمته.

* * *

بنهاية الظهيرة، شعرا بالإعياء، رغم أن العمل الذى أنجز كان أقل من اللازم، ولم يساعدهما أى من سكان "أكبار". اقتربا من الصبى، الذى رفع رأسه لأول مرة منذ جلس فى هذا المكان، وقال: أنا جائع.

قالت المرأة: سأذهب للبحث عن شئ ما صالح الأكل. هناك كثير من الطعام مخبأً بمنازل مختلفة فى "أكبار"، فقد كان الناس يستعدون لحصار طويل.

قال "إيليا": أحضرى طعاماً لى ولك، فنحن لنا سلطة على المدينة لما بذلناه من جهد. أما إذا كان الصبى يريد أن يأكل، فيجب أن يعتنى بنفسه.

فهمت المرأة، فقد كانت ستفعل نفس الشئ مع ابنها. ذهبت إلى المكان الذى يقع به منزلها، وتقريباً كان اللصوص قد عبثوا بكل شئ وهم يبحثون عن الأشياء الثمينة. ووجدت

مجموعة من الأولاد - من صناعة أفضل صانعي الزجاج فى
"أكبار" - قد تناثرت على الأرض. لكنها وجدت الفواكه
والحبوب المجففة التى سبق أن اشتريتها.
عادت إلى الساحة، واقتسمت الطعام مع "إيليا" - ولم
ينطق الصبى بشئ.

بعدها اقترب رجل عجوز منهما وقال: رأيتهما
تجمعان الجثث طوال اليوم.
أنتما تهدران وقتكما. ألا تعلمان أن الأشوريين
سيعودون بعد احتلالهم صيدا وتأير؟ اتركا إله الطاعون يأتى
إلى هنا ويغنيهم.

قال "إيليا": لا نقوم بذلك لأجلهم أو لأجلنا. فهى تعمل
لتعلم الصبى أنه لا يزال ثمة مستقبل. وأنا أعمل لأبين له أنه
لم يعد ثمة ماض.

قال الرجل العجوز: إذن لم يعد النبى يمثل تهديدا
للأميرة العظيمة.. يا لها من مفاجأة! ستحكم "إيزابيل" إسرائيل
حتى نهاية عمرها، وسنظل نستضيف لاجئا إذا لم يكن
الأشوريون كرماء.

لم يرد "إيليا". والاسم الذى أيقظ بداخله، ذات مرة، كل
هذه الكراهية، الآن يبدو بعيدا غريبا.

قال الرجل العجوز - بإصرار - سيعاد بناء "أكبار"،
على أية حال. فالإلهة تختار أماكن تشييد المدن، ولن تخذلها.
لكننا نستطيع أن نترك هذا المجهود للأجيال القادمة.
أدار إيليا ظهره للرجل العجوز منهيا الحوار.

نام ثلاثتهم فى الهواء الطلق. احتضنت المرأة الصبى،
ملاحظة أن معدته تهدر من شدة الجوع. فكرت أن تمنحه
بعض الطعام، لكنها سرعان ما تخلت عن هذه الفكرة وقالت
لنفسها: صحيح التعب يقلل الشعور بالألم، والصبى الذى يبدو
أنه قد عانى كثيرا، يحتاج أن يشغل نفسه بشئ ما . ربما يدفعه
الجوع للعمل.

فى اليوم التالى، استعاد "إيليا" والمرأة نشاطهما. وعاد إليهما الرجل العجوز الذى سبق أن جاءهما ليلة أمس. قال الرجل العجوز: لا عمل لدى. وأستطيع مساعدتكما. لكننى ضعيف جدا ولا أستطيع أن أحمل الجثث. قال له: إذن اجمع قوالب الطوب وقطع الخشب الصغيرة، واكنس التراب. وبدأ الرجل العجوز ينفذ ما طلباه منه.

* * *

عندما وصلت الشمس منتصف السماء، جلس "إيليا" على الأرض من الإعياء. كان يعرف أن ملاكه جواره، ولا يستطيع أن يسمعه. فما فائدته ؟ لم يكن قادرا على مساءلتى عندما احتجت إليه. والآن لا أريد مشورته، كل ما أريده أن أعيد هذه المدينة إلى سابق عهدها، لأبين للرب أننى قادر على مولجهته، وعندئذ سارحل إلى أى مكان أريده.

لم تكن إسرائيل بعيدة ، فهي على مسيرة سبعة أيام ،
ولا توجد أماكن صعبة في الطريق إليها. لكنه هناك مطلوب ،
بوصفه خائناً. قد يكون من الأفضل أن يذهب إلى دمشق ، أو
يجد عملاً كـ "ناسخ" في مدينة يونانية.
شعر "إيليا" بشئ يلمسه . والتفت فرأى الصبي يحمل
برطماناً صغيراً.

قال الصبي: وجدته في أحد المنازل.
كان البرطمان مملوءاً بالماء، وشربه "إيليا" حتى آخر
قطره، ثم قال للصبي: كل شيئاً. لقد عملت وتستحق مكافأة.
ولأول مرة منذ ليلة الغزو ، ظهرت ابتسامة على شفתי
الصبي، وجرى إلى المكان الذي تركت فيه المرأة الحبوب
والفواكه.

عاد "إيليا" إلى عمله ، وكان يدخل المنازل المهدامة ،
مزياً الأحجار ، ملتقطاً الأجساد ليحملها إلى الكومة وسط
الساحة.

سقطت الضمادة التي وضعها الراعي على ذراعاه ،
ولم يكن ذلك مهما بالنسبة له ، كان الرجل العجوز ، الذي يجمع
النفائات المتناثرة في الساحة ، على حق ، فقرباً سيعود
الأشوريون ليجمعوا الفواكه التي لم يزرعوها.

كان "إيليا" يكد لأجل الغزاة ، السفاحين الذين اغتالوا
المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته. لكن الأشوريين يؤمنون
بالخرافات ، وسيعيدون بناء أكابر على أية حال. لأنه حسب
المعتقدات القديمة ، وزعت الآلهة المدن وفق نظام معين وفي

تتأغم مع الوديان والحيوانات والأنهار والبحار. وفي كل مدينة جعلوا لأنفسهم مكانا مقدسا سريا ليرتلحوا فيه أثناء رحلاتهم الطويلة حول العالم. وعندما تدمر مدينة، ثمة تهديد دائم بأن السموات ستطبق على الأرض.

تقول الأسطورة إن مكتشف مدينة "أكبار" كان يمر بها منذ مئات السنين، قادما من الشمال. وقرر أن ينام فى مكان ماء، وغرس حزمة من الخشب فى هذا المكان كعلامة تنله على الموضع الذى ترك به أشياءه.

وفى اليوم التالى لم يستطع أن ينزع حزمة الخشب هذه، وسرعان ما أدرك حكمة الكون، ووضع حجرا فى المكان الذى حدث فيه المعجزة.

واكتشف كذلك نبعاً بالقرب منه. وشيئاً فشيئاً بدأت القبائل تستقر حول الصخرة والبر، وولدت "أكبار".

وذات مرة بين الحاكم "إيليا" أنه حسب العادات الفينيقية، كل مدينة هى النقطة الثالثة والعنصر الذى يربط إرادة السماء بإرادة الأرض.

الكون يجعل البذور تحول نفسها إلى نبات، والترية تسمح له بأن ينمو، والإنسان يحصده ويحمله إلى المدينة، حيث أحقاد الآلهة مكرسون لخدمتها قبل أن يحملوا إلى الجبال المقدسة.

ورغم أن "إيليا" لم يسافر كثيرا، كان يعلم أن بلادا كثيرة فى العالم لديها أساطير مشابهة. وهكذا يخشى

الاشوريون أن يتركوا آلهة الجبل الخامس بلا طعام، دون أن
تكون لديهم أدنى رغبة في الإخلال بنظام الكون.
قال "إيليا" : لماذا أفكر في مثل هذه الأشياء. إذا كانت
هذه المعركة بين إرادتي وإرادة الله الذى تركنى وحيدا وسط
كل هذه المحن؟

عاوده نفس إحساس الأمس عندما تحدى الرب، أحس
أنه ينسى شيئا مهما، ومهما حث ذاكرته فلن يستطيع استدعاءه.

مر يوم آخر. وعند نهايته كانت معظم الجثث قد جمعت وسط الساحة. واقتربت امرأة ثانية منهم وقالت: لا طعام عندي.

أجابها "إيليا": ولا نحن. فأمس واليوم نقاسم ثلاثتنا طعام شخص واحد. فحاولى اكتشاف أين يوجد الطعام، ثم أخبرينى.

سألت المرأة: أين تستطيع تعلم ذلك؟

قال "إيليا": أسألى الأطفال، فهم يعرفون كل شئ.

فمنذ أن قدم الصبى بعض الماء لإيليا، بدا وكأنه استعاد جزءا من ثقوه للحياة. وكان "إيليا" قد طلب منه أن يساعد الرجل العجوز فى جمع البقايا والقاذورات، لكنه لم ينجح أن يجعله يعمل لفترة طويلة، وهو الآن يلعب مع بعض الصبية فى أحد أركان الساحة.

قال "إيليا" لنفسه: هذا أفضل. فعندما يصبح رجلا سيكون لديه متسع من الوقت ليكد ويعرق.

ولم يشعر "إيليا" بالندم لأنه جعل الصبى يقضى طوال الليل جائعا ، بحجة أنه يجب أن يعمل، وأنه إذا عامله كيتيم فقير، ضحية المحاربين الأشرار السفاحين، ما كان ليخرج من حالة الإحباط التي تملكته منذ دخولهم المدينة. والآن خطط "إيليا" أن يترك الصبى لحاله أياما قليلة، حتى يجد إجاباته الخاصة على ما حدث. قالت المرأة التي طلبت الطعام: كيف يستطيع الأطفال إدراك أى شئ؟

قال "إيليا" : اكتشفى الأمر بنفسك. وراها كل من المرأة والرجل العجوز، اللذين ساعدا "إيليا" نتحدث إلى الصبية الصغار وهم يلعبون فى الشارع. وبدا الأمر وكأنهم قالوا شيئا ما، فاستدارت وعلى وجهها ابتسامة ، اختفت عند أحد أركان الميدان. تساءل الرجل العجوز: كيف اكتشفت أن الأطفال يعرفون؟

قال "إيليا" : لأننى كنت طفلا ذات يوم، وعرفت أن الأطفال بلا ماض. وتذكر ثانية حواراه مع الراعى. فقد كانوا مرعوبين ليلة الغزو، أما الآن فهم لا يهتمون بذلك، وتحولت المدينة بالنمى لهم إلى متنزه يستطيعون اللهو فيه دون أن يضايقهم أحد.

وبالصدفة قد يعثرون على طعام خزنه الناس لأيام الحصار. دائما يستطيع الأطفال أن يعلموا الكبار ثلاثة أشياء : السعادة بلا سبب، الانشغال بشئ ما ، معرفة كيف يطلبون بكل قوة ما يرغبون فيه.

ويسبب هذا الطفل، ولأجله، عدت إلى "أكبار".

• • •

فى مساء هذا اليوم جاء مزيد من الرجال والنساء
العاجز للمعاونة فى جمع جثث الموتى. ووظف الأطفال فى
إخافة الطيور الجارحة ودفعها للطيران، وإحضار قطع الخشب
والملابس.

وعندما حل المساء أشعل "إيليا" النار فى كومة الجثث.
وتأمل الناجون - فى صمت - الدخان المتصاعد.

سقط "إيليا" من الإعياء بمجرد إتمام المهمة. وقبل النوم
عاوده نفس الشعور الذى انتابه هذا الصباح، كما لو أن شيئاً
مهما كان يصارع يائساً ليتسلل إلى ذاكرته. لم يكن قد تعلم
شيئاً طوال المدة التى مكثها فى "أكبار" سوى قصة قديمة، تلك
القصة التى يبدو أنها تمنح معنى لكل ما حدث.

• • •

تقول القصة: "ذات مساء دخل رجل خيمة يعقوب،
وتصارعا حتى الفجر. وعندما أدرك أنه لن يستطيع الانتصار
عليه، قال: "دعنى أذهب".

قال يعقوب: لن أدعك تذهب حتى تمنحنى البركة.
عندئذ قال له الرجل: بوصفك أميراً، لك سلطة على
الرب والرجال، ولأنك انتصرت، فماذا يكون اسمك؟ - قال له:
يعقوب.

قال الرجل: لن تنادى بـ "يعقوب" بعد الآن، وإنما
"إسرائيل".

استيقظ "إيليا" فجلاً، ونظر إلى السماء وهمس: هذه
هي القصة المفقودة!

فمنذ زمن بعيد أقام يعقوب معسكراً، وأثناء الليل دخل
شخص ما خيمته وتصارع معه حتى الفجر. وقبل يعقوب
الصراع رغم إدراكه أن خصمه كان الله. وحتى الصباح لم
يهزم، وتوقف الصراع عندما وافق الرب أن يمنحه البركة.
وانتقلت الحكاية من جيل إلى آخر، وهكذا لن تنسى
أبداً.

"أحياناً تكون ثمة حاجة للصراع مع الرب".
فكل إنسان ، في وقت ما، تدخل المأساة حياته، قد
تكون: تدمير مدينة، موت ابن، اتهام بلا دليل، مرض يجعل
المرء طريح الفراش للأبد.
في مثل هذه اللحظة يتحدى الرب الإنسان ليواجهه،
ويجيب على سؤاله:

لماذا تنشيت سريعا بوجود قصير ومملوء بالمعاناة؟
وما جدوى صراحك فى الحياة؟

والمرء الذى لا يعرف كيف يجب على هذا السؤال،
يتخلى عن نفسه - بينما الآخر الذى يرى معنى للوجود، يشعر
أن الرب غير عادل، ولا بد أن يتحدى مصيره.
وعند هذه اللحظة تنزل نار مختلفة من السماء . ليست
تلك النار التى تقتل، بل ذلك النوع الذى يهدم الجدران القديمة،
ويوضح القدرات الحقيقية لكل مخلوق.

ولا يسمح الجبناء لقلوبهم أن تتوهج بهذه النار، فكل ما
يرغبونه إنما هو تغيير الوضع الحالى والعودة سريعا إلى ما
كان، وهكذا يستطيعون المضى فى حياتهم والتفكير بطريقةهم
المعتادة.

دائما - يتسم الشجعان بالعناد والصلابة".

وفى السموات ينتمى الرب برضا، فهذه رغبته، أن
يصبح كل شخص مسئولا عن حياته. ولهذا نجده قد منح أبناءه
أعظم منحة على الإطلاق وهى:

القدرة على اختيار وتحديد أفعالهم.

فقط هؤلاء الرجال والنساء الذين تحمل قلوبهم اللهب
المقدس، لديهم الشجاعة لمواجهته. ووحدهم يعلمون طريق
العودة لاكتساب محبته لأنهم أدركوا أن المأساة ليست عقابا بل
تحد.

تتبع "إيليا" فى ذهنه كل الخطوات التى خطاها. فعندما
غادر دكان اللجارة كان قد قبل مهمته بلا شك أو جدال.

ورغم أنها كانت أمرا واقعا ، وشعر أنها كذالك، لم تتح له فرصة أن يرى ما كان يحدث فى المسالك التى اختار ألا يسلكها لأنه خشى أن يفقد إيمانه ، وإخلاصه وإرادته . ظن انه من الخطر أن تجرب مسلك عامة الناس، فقد يعتاد عليه ويجد متعة فيما رأى.

لم يفهم أنه كان مثل غيره، حتى ولو سمع أصوات الملائكة، وتلقى - من حين لآخر - أوامر من الرب. ونتيجة ليقينه بأنه عرف ما يريد، تصرف بنفس الطريقة مثل هؤلاء الذين لم يتخذوا قرارا مهما فى حياتهم. فر من الشك ، من الهزيمة، ومن لحظات العجز عن اتخاذ القرار. لكن الله كان كريما وقاده إلى هاوية المصير المحتوم، ليبين له أن الإنسان يجب أن يختار - وليس يتقبل - مصيره.

منذ سنوات كثيرة مضت، وفى ليلة مثل هذه ، لم يدع يعقوب الرب يرحل دون أن يمنحه البركة . وعينئذ سألته الرب: ما اسمك؟

والمغزى الرئيسى لهذا الموقف هو : يجب أن يكون لك اسم.

وعندما أجاب يعقوب، عمده الرب باسم "إسرائيل" ورغم أن كلا منا لديه اسم منذ ميلاده، يجب عليه أن يتعلم تعميد حياته بكلمة يختارها لتمنح معنى لتلك الحياة. قالت المرأة: أنا "أكبار".

كان تدمير المدينة وموت المرأة التى أحبها، ضرورة ليفهم "إيليا" أنه يجب أن يكون له اسم . ومنذ هذه اللحظة أطلق

على حياته هذا الاسم: الحرية.

وقف وتأمل الساحة أمامه. كان الدخان ما زال يتصاعد من رماد هؤلاء الذين فقدوا حياتهم . وعندما أشعل النار فى الجثث كان قد تحدى عادة قديمة من عادات المدينة، التى تأمر بدفن الميت حسب الشعائر المقدسة. لقد صارع الرب والعادات باختياره وأشعل النار فى الجثث، دون أن يشعر بأية خطيئة لاختياره حلا جديدا لمشكلة جديدة.

رحمة الرب لا نهاية لها، وقسوته لا تطاق تجاه الذين افتقدوا الشجاعة والتحدى.

ثانية - جال بنظره فى الساحة، وكان بعض الناجين لم يناموا وظلت عيونهم محمقة فى السنة اللهب، كما لو أن النار تلتهم ذاكرتهم وماضيهم، ومائتى عام من السلام والسكينة فى "أكبار".

مضى زمن الخوف والأمل، والآن لم يتبق سوى إعادة البناء أو إعلان الهزيمة. المذعن، الحكيم، العاشق، الحاج.. ثمة اختيارات كثيرة مثل النجوم فى السماء، لكن كل واحد منها يجب أن يمنح اسما لحياته.

نهض "إيليا" وصلى : تحديتك يا إلهي، ولست خجلتنا. وبسبب هذا اكتشفت أنني على دربي أسير، لأن هذه هى رغبتى، وليست مفروضة على من قبل بواسطة أب أو أم أو عادات بلدى أو حتى بواسطة.

الأمر يرجع لك يا إلهي، كي أعود في هذه اللحظة.
وأتمنى أن أصبح باسمك وأنا في كامل إرادتي وليس لأتسى
جبان لم أعرف كيف أختار دربي.
ولكى تسر إلى برسانك المهمة ، يجب أن أستمع في
هذه المعركة ضدك حتى تباركني.
إعادة بناء "أكبار" ظنّها "إيليا" تحدياً للرب، وهي في
الحقيقة كانت مواجهة جديدة بينه وبين الرب.

صباح اليوم التالي، ظهرت المرأة التي سبق أن طلبت بعض الطعام، وكان بصحبته عدد كبير من النساء، وقالت: عثرنا على بعض المؤونة المخزونة، ولأن كثيرين قتلوا وآخرين فروا مع الحاكم، لدينا طعام يكفي لمدة عام . قال "إيليا" ليتول العجائز مسؤولية توزيع الطعام، فلديهم خبرة في التنظيم.

قالت المرأة: فقد العجائز إرادة الحياة.
قال: اطلبي منهم أن يأتوا على أية حال.
كانت المرأة تتأهب للرحيل عندما استوقفها "إيليا" وسألها: هل تعرفين الكتابة باستخدام الحروف؟
أجابت : لا.

قال: لقد تعلمت واستطيع تعليمك . فأنت بحاجة لهذه المهارة لتساعديني في حكم المدينة.
قالت: لكن الآشوريين سيعودون.

قال: عندما يعودون سيحتاجون عوننا للتعامل مع
شئون المدينة.

قالت: لماذا تقوم بهذا العمل للعدو؟
قال: حتى يتسنى لكل منا أن يمنح حياته اسما. والعدو
مجرد ذريعة لاختبار قوتنا.

* * *

وكما طلب "إيليا" جاء العجائز.
قال لهم: "أكبار" تحتاج عونكم. ولهذا لن تنعموا بتقدم
عمركم، فنحن بحاجة إلى الشباب الذى سبق أن فقدتموه.
قال أحدهم : لا نعرف أين نجده. لقد تلاشى بين
التجاعيد وخيبة الأمل.

قال "إيليا": هذا غير حقيقى. لم تكن لديكم ضلالات
قط. وهذا ما جعل شبابكم يخفى نفسه بعيدا. الآن حانت لحظة
العثور عليه ثانية ، لأن لدينا حلما مشتركا. إعادة بناء
"أكبار".

قال العجوز :كيف نستطيع تحقيق المستحيل؟
أجابه "إيليا": بالحماس.
وجاهدت العيون التى خيم عليها الأسى والتخاذل ،
لتنلمع من جديد.

لم يعودوا نفس المواطنين عديمى النفع الذين اعتادوا
حضور المحاكمات سعيًا وراء شئ ما يتحدثون عنه بفيه اليوم،
الآن أمامهم مهمة جليلة، وهناك من يحتاجونهم.

قام أوفرهم صحة بنزع المواد الصالحة للاستخدام من
المنازل المهجمة، للاستفادة منها في إصلاح تلك المنازل التي
ما زالت سليمة. وتعاون الأكبر سنا في نشر رماد الجثث في
الحقول، وهكذا قد يتذكر الناس موتاهم عند الحصاد التالي.
وقام اخرون بجمع الحبوب التي انتثرت في الشوارع،
وصنعوا الخبز، وجلبوا المياه من البئر.

بعد ليلتين ، جمع "إيليا" كل سكان "أكبار" فى الساحة
التي أصبحت الآن خالية من معظم البقايا . أشعلت المصلييح ،
وقال لهم:

لا خيار أمامنا ، فإذا تركنا هذا العمل للأجانب ، نكون
قد ضيعنا الفرصة الوحيدة التي قدمتها المأساة لنا وهي: إعادة
بناء حيواتنا.

فرماد أجساد الموتى التي حرقناها منذ أيام مضت ،
سيصبح النباتات التي ستزهر فى الربيع مجددا. والابن الذى
فقد ليلة الغزو ، سيصبح كل الأطفال الذين يجرون بحرية عبر
الشوارع المتهمة، مستمتعين بدخول الأماكن المحرمة
والمنازل التي لم يتعرفوا عليها أبدا.

.. حتى الآن - الأطفال فقط هم القادرون على تجاوز
ما حدث، لأنهم بلا ماض ، واللحظة الراهنة هي كل ما يهمهم.
ولهذا سنحاول التصرف كما يتصرفون.

تساءلت المرأة: أيستطيع الإنسان أن ينزع من قلبه ألم
الفقد والخسارة؟

قال "إيليا" : لا. لكنه يستطيع أن يجد السعادة فى شئ
فاز به.

استدار "إيليا" وأشار إلى قمة الجبل الخامس المغطاة
بالسحب دائما.

وكان تحطيم الجدران قد جعلها مرئية من الساحة.
أكمل "إيليا": أنا أؤمن بالله واحد، بينما تعتقدون أن
الآلهة تسكن بين هذه السحب حول قمة الجبل الخامس. ولا
أرغب فى مناقشة ما إذا كان إلهى أقوى أو أكثر سلطة، ولن
أتحدث عن الاختلافات بيننا، بل عن الأشياء المشتركة. لقد
حدثت المأساة بيننا حول عاطفة واحدة: اليأس. كيف حدث
هذا؟ لأننا ظننا أن كل شئ تمت الإجابة عليه وإقراره فى
أرواحنا، ولن نستطيع قبول أية تغيرات.
أنتم وأنا ننتمى إلى بلاد تجارية . لكننا نعرف كذلك
كيف نتصرف مثل المحاربين.
والمحارب دائم الانتباه إلى الأشياء التى تستحق القتال
فى سبيلها.

وهو لا يدخل فى صراع على أشياء لا تهمه . ولا
يهدر وقته مطلقا فى المشاحنات والاستفزاز.
والمحارب يتقبل الهزيمة. ولا يتعامل معها بلا مبالاة،
لكنه لا يحاول تحويلها إلى انتصار. ألم الهزيمة يملأ
بالمرارة، فإني بلا نواح، وتزيد الوحدة يأسا. وبعد أن يمر

كل هذا، يلحق جراحه ويبدأ من جديد. فالمحارب يعرف أن الحرب تتكون من معارك كثيرة، ولهذا يمضى فى طريقه.
المأسى لا بد أن تحدث. وبستطيع اكتشاف السبب، ونلوم الآخرين، ونخيل كم ستكون حياتنا مختلفة لو لم تحدث. لكن لا أهمية لكل ما سبق ، لأنه لا مفر من حدوث المأساة والمرور بها.
من الآن يجب أن نزيح الخوف الذى استيقظ داخلنا، ونبدأ إعادة البناء.
سيمتح كل واحد منكم نفسه اسما جديدا، وبداية جديدة من هذه اللحظة.
وسيكون هذا هو الاسم المقدس الذى سيحتوى بداخله كل ما حلمتم بالقتال من أجله. وبالنسبة لى، لقد اخترت "الحرية" اسما.
خيم الصمت على الساحة لبعض الوقت. عندئذ نهضت المرأة التى كانت أول من انضم لمعاونة "إيليا"، وقالت: اسمى هو "إعادة المواجهة".
وقال رجل عجوز : اسمى "الحكمة".
وصاح ابن المرأة التى أحبها "إيليا" اسمى هو "خووف الهجاء".
انفجر الناس فى الضحك، فشعر الصبى بالخجل وجلس ثانية.
وصاح صبى آخر. كيف يدعو أى إنسان نفسه بـ "حروف الهجاء".

وكان فى استطاعة "إيليا" أن يتدخل لكنه رأى أنه من
الأفضل أن يتعلم الصبى كيف يدافع عن نفسه.
قال الصبى: لأن هذا ما فعلته أمى، فكلما نظرت إلى
الحروف أتذكرها.
وهذه المرة لم يضحك أحد. أعلن الأيتام والأرامل
و العجائز أسماءهم وهويتهم الجديدة، واحدا بعد الآخر.
وعند انتهاء الاحتفال طلب "إيليا" من الجميع الذهاب
ليناوما مبكرا، فمن الصباح يجب أن يعودوا إلى ما كانوا
يقومون به.
أمسك يد الصبى واتجها إلى مكان فى الساحة علقـت
فيه بعض قطع الملابس على هيئة خيمة.
وبداية من هذه الليلة، بدأ يعلمه الكتابة البابلية.

أيام وأسابيع، بعدها تغير وجه "أكبار". وتعلم الولد سريعا كيف يخط الحروف، وبدأ يبتدع كلمات ذات معنى، وحثه "إيليا" أن يكتب على ألواح الطين؛ قصة إعادة بناء المدينة.

وكانت الألواح الطينية توضع في الأفران لتتحول إلى ألواح من السيراميك ، ثم تخزن بواسطة زوجين عجوزين. وفي جلسات ما بعد الظهر، كان "إيليا" يطلب من العجائز أن يحكوا عما رأوه في طفولتهم، وهكذا دون أكبر عدد ممكن من القصص العظيمة.

وبين لهم أن ذاكرة "أكبار" سوف تكون على مادة لا تدمرها النيران. ويوما ما سيعلم أطفالنا وأطفال أطفالهم أن الهزيمة لم تقبل ، وأن المصير المحتوم قهر. ويمكن أن يصبح هذا مثالا يحتذى لهم.

كل ليلة، بعد انتهائه من التدريس للصبي، كان "إيليا" يسير في شوارع المدينة المهجورة حتى يصل إلى أول الطريق

المؤدية إلى أورشليم ، وهناك كان يفكر فى الرحيل، ثم يعود ثانية إلى المدينة.

كانت المهمة ثقيلة وتتطلب أن يركز على اللحظة الراهنة. فسكان المدينة يعتمدون عليه لإعادة بناء المدينة، وسبق أن خذلهم ذات مرة عندما فشل فى الحيلولة دون قتل القائد الأشورى ، وكان نجاحه سيجنبهم الحرب. لكن الرب دائما يمنح أطفاله فرصة ثانية، ولذا يجب أن يستغل فرصته الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك، أصبح شغوقا بالصبي، ويرغب فى تعليمه ليس الحروف البابلية - فقط - وإنما الإيمان بالله وبحكمة الأسلاف. ورغم ذلك لم ينس أن فى بلاده تعيش أميرة أجنبية وإله أجنبى.

ولم تعد ثمة ملائكة تحل سبوقا مشتعلة ، وله مطلق الحرية أن يرحل عندما يريد، ويفعل كل ما يرغب فيه. كل ليلة يفكر فى الرحيل - وكل ليلة يرفع يديه إلى السماء ويتوسل:

"قاتل يعقوب طوال الليل، وتلقى البركة عند الفجر. وأنا قاتلك لأيام وشهور ولم تستجب لى. لكن إذا نظرت حولك ستعرف أننى المنتصر، فـ"أكبار" تنهض من بين أطلالها، وأنا أعيد بناء ما استخدمت سيف الأشوريين، لتحوله إلى رماد وتراب.

سأقاتلك حتى تباركنى، وتبارك ثمرة مجهودى. وذات يوم سوف تضطر للاستجابة لى".

* * *

حملت النساء والأطفال المياه إلى الحقول ، مكافحين
الجفاف الذى بدا بلا نهاية.

وفى يوم بعدما غابت الشمس الحارقة بكل جبروتها،
سمع "إيليا" من يقول: نحن نعمل بلا توقف، ولم نعد نذكر الأم
تلك الليلة، حتى إننا نسينا أن الأشوريين سيعودون بمجرد أن
يقهروا تاير وصيدا وبابل وكل المدن الفينيقية . هذا أمر حسن
بالنسبة لنا. ولأننا تفانينا فى إعادة بناء المدينة، تصورنا كل
شئ عاد إلى حالته السابقة، ولم نر نتيجة جهودنا.

تفكر "إيليا" لبعض الوقت فيما سمع، ثم أمر باجتماع
الناس فى نهاية اليوم عند سفح الجبل الخامس ليتأملوا غروب
الشمس.

وانتاب القلق معظمهم لأنهم لم يتبادلوا كلمة واحدة.
ورغم ذلك اكتشفوا أنه من الضرورى أن يدعوا الأفكار تتجول
بلا هدف مثل السحب فى السماء، وبهذه الطريقة يفر القلق من
قلب كل شخص، ويجدون جميعا الإلهام والقوة اللازمة
للمستقبل.

قال "إيليا" عند استيقاظه إنه لن يعمل أو يبذل أى مجهود، ففي وطنه هذا هو يوم الغفران.

قالت له المرأة : ليس من خطيئة فى روحك . لقد بذلت أقصى ما فى وسعك.

قال: يجب الحفاظ على العادات. وسوف أحفظها.

رحلت المرأة لتحمل المياه إلى الحقول، وعاد الرجال العجائز إلى بناء الجدران وتشكيل الخشب أبواباً ونوافذ.

وتعاون الأطفال فى تشكيل القوالب الطينية الصغيرة التى ستسوى فى النار بعد ذلك.

تابعهم "إيليا" والغبطة تملأ قلبه. وبعد ذلك خرج من "أكبار" وسار باتجاه الوادى، حيث تجول بلا هدف يتلوه الصلوات التى تعلمها فى طفولته.

لم تكن الشمس أشرقت بأكملها. وحيث وقف كان فى استطاعته أن يرى ظل الجبل الخامس وقد غطى الوادى، ف شعر بهاجس مرعب:

"الصراع بين إله إسرائيل والآلهة الفينيقية قد يستمر
لأجيال كثيرة ولآلاف السنين".

* * *

تذكر أنه ذات مساء تسلق إلى قمة الجبل الخامس،
وتحدث مع الملاك.
ولكن منذ تدمير "أكبار" لم يعد يسمع أية أصوات من
السماء.

استدار ناحية أورشليم وقال: يا الله، اليوم يوم الغفران،
وخطايى كثيرة.

لقد ضعفت لأننى نسيت مصدر قوتى. وتعاطفت
عندما كان لا بد أن أكون حازما.

فشلت فى الاختيار لأننى خشيت أن أخطئ الاختيار.
واستسلمت قبل أن يحين الوقت لذلك، وتمردت بدلا من أن
أشكرك وأحمدك.

وأنت يارب أخطأت كثيرا فى حقى. لقد جعلتلى أعانى
أكثر مما أستحق، عندما أخذت من هذا العالم المرأة التى
أحببتها، وحطمت المدينة التى أوتنى، وأربكت رحلة بحثى،
وجعلتلى قسوتك أنسى الحب الذى أحمله لك.

وطوال فترة صراعى معك، لم تقبل ما فى مواجهتى
من كفاءة.

وإذا قارنا آثامى بما ارتكبته من أخطاء فى حقى،
سنجد أنك مدين لى.

ولكن لأن اليوم هو يوم الغفران، امنحني عفوك
لأسامحك، وهكذا ربما نسير جنبا إلى جنب.
وفى هذه اللحظة هبت ريح ، وسمع ملاكه يقول له:
"إيليا"، لقد قمت بعمل حسن، والرب قبل مواجعتك.
انسابت الدموع من عينيه ، فسجد وقبل تربة الوادى
الجافة، وقال:

أشكرك لأنك أتيت ، لقد تملكنى هاجس بائس ما فعلت.
قال الملاك: إذا قاتل محارب معلمه، هل فى ذلك إثم؟
قال "إيليا" : لا. فهذه هى الطريقة الوحيدة لاكتساب
المهارة اللازمة له.

قال الملاك: إذن استمر حتى يطلب منك الرب العودة
إلى إسرائيل. انهض واعمل لإثبات أن صراعاك له معنى،
لأنك قد عرفت كيف تعبر نهر المصير المحتوم.

.. كثيرون سبحوا فيه وغرقوا ، آخرون جرفهم تياره
إلى أماكن لم يتوقعوها، أما أنت فواجهت العبور بعظمة،
وأرشدت السريان داخل شرايبتك، وحولت الألم إلى فعل.

قال "إيليا": يا لك من أعمى مسكين ، وإلا كنت سترى
أن الأيتام والأرامل والعجائز قادرون على إعادة بناء المدينة.
وقريبا سيعود كل شئ إلى ما كان عليه.

قال الملاك: بدونهم ما كان هذا ليحدث. تذكر أنهم
دفعوا ثمنا باهظا حتى تتغير حياتهم.
ابتسم "إيليا". فقد كان الملاك على حق.

وأكمل الملاك: فلا تفعل كما يفعل الرجال عند منحهم
فرصة ثانية، لا ترتكب نفس الخطأ مرتين. لا تتس الدافع وراء
حياتك أبدا.
قال: لن أنسى. وشعر بمسعادة غامرة لعودة الملاك.

لم تعد القوافل تمر عبر الوادى، فالاشوريون لا بد قد دمروا الطرق وغيروا مسار القوافل التجارية.

يوما بعد يوم تسلق الأطفال برج المراقبة فوق الجدار الوحيد الذى لم يدمر، ودفعهم إلى ذلك الرغبة فى مراقبة المدى وتنبيه القرية عند عودة محاربى العدو.

كان "إيليا" قد خطط لاستقبالهم بشموخ، ثم يسلم لهم السلطة. بعدئذ يستطيع الرحيل. لكن مع مرور الأيام نما بداخله شعور أن "أكبار" أصبحت جزءا من حياته. وربما لم تكن مهمته إبعاد إيزابيل عن العرش، وإنما كانت البقاء مع هؤلاء الناس لبقية حياته، قائما بدور الخادم الحقيق للغزاة الآشوريين. قد يساعد فى إعادة إنشاء طرق التجارة وتعلم لغة العدو.

وخلال لحظات راحته يشرف على المكتبة التى كانت تزداد جمالا كل يوم.

وبينما فى ليلة طواها الزمن؛ بدت المدينة كما لو كانت قد بلغت نهايتها، فإنها تبدو الآن وكأنه من الممكن جعلها أكثر جمالا مما كانت عليه.

فالشوارع المعاد إنشاؤها أوسع، والأسطح أمتن، وثمة نظام عبقرى لنقل المياه من البئر إلى أبعد الأماكن.

كذلك روجه بدأت تشفى ، ففي كل يوم كان يتعلم شيئا جديدا من العجائز والأطفال والنساء . تلك المجموعة التي لم تهجر "أكبار" فقط لاسئحالة القيام بذلك، وأصبحت الآن مجموعة منظمة وكفنا.

ولو عرف الحاكم أنهم قادرون على المعاونة هكذا، لابتدع دفاعا آخر عن المدينة وما تعرضت "أكبار" للتمييز. تفكر "إيليا" للحظة ، أدرك بعدها أنه على خطأ. كانت "أكبار" تحتاج إلى أن تدمر حتى يتمكن الجميع من إيقاف القوى الكامنة داخلهم.

مضت شهور دون أن تصدر عن الأستوريين أية إشارة تدل على أنهم أحياء.

فى هذه الأونة كاد العمل فى إعادة إنشاء "أكبار" أن يكتمل، وأصبح فى مقدور "إيليا" أن يفكر فى المستقبل.

كانت النساء قد خاطت من قطع الملابس، ثيابا جديدة لهن. وانتهى الرجال العجائز من تشييد المنازل، وبدأوا المساهمة فى تنظيف المدينة.

أما الأطفال فكانوا يعانون عندما يطلب منهم ذلك، لكنهم - عادة - كانوا يقضون اليوم فى اللعب؛ فهو أقصى اهتماماتهم.

عاش "إيليا" مع الصبى فى منزل حجرى صغير أعيد بناؤه فى مكان سبق أن كان مخزنا التجار. واعتماد سكان

"أكبار" الاجتماع كل مساء حول النار فى الساحة الرئيسية، يحكون الحكايات التى سمعوها فى صغرهم، فى وجود الصبى الذى كان يسجل كل شئ على ألواح الطين التى كانت تحمص فى اليوم التالى.

وكانت المكتبات تنمو بسرعة لم يسبق لهم أن شهدوها.

وتعلمت المرأة التى فقدت ابنها الحروف البابلية. وعندما رأى "إيليا" أن المرأة قادرة على ابتداع الكلمات والعبارات ، كلفها بتدريس الحروف الهجائية لبقية الناس، وبهذه الطريقة عند عودة الآشوريين ، يمكن أن يعملوا كمتترجمين أو مدرسين. "وهذا بالضبط ما أراد كبير الكهنة أن يمنع"، قال رجل عجوز ذات ظهيرة اتخذ "المحيط" له اسما؛ لأنه رغب أن يكون له قلب واسع مثل البحر، وهكذا نجت الكتابة البابلية لتهدد آلهة الجبل الخامس.

قال "إيليا": من يستطيع أن يمنع المكتوب؟

كان الناس فى "أكبار" يكدحون طوال اليوم حتى غروب الشمس، وفى المساء يعودون إلى الحكايات. وكان "إيليا" فخورا بعمله . ويمرور الأيام تزايد هذا الشعور بداخله.

وذاث يوم هبط أحد الأطفال المكلفين بالحراسة، وجرى إلى المدينة وهو يصيح : الغبار .. رأيت غبارا على الأفق .. العدو يعود.

تسلق "إيليا" برج المراقبة، وتؤكد من صحة هذه الأنباء. واستنتج أنهم ربما يصلون إلى أبواب المدينة فى اليوم التالى.

وفى ظهيرة هذا اليوم قال للسكان: إنهم لا يجب أن يمكثوا حتى غروب الشمس، عليهم الاجتماع فى الساحة. وعند انتهاء العمل وقف أمام الناس وأدرك أنهم خائفون، وقال: اليوم لن نحكى أية حكايات أو نتحدث عن مستقبل "أكبار"، بل سنتحدث عن أنفسنا. ولم ينطق أحد بكلمة.

وأكمل "إيليا": منذ فترة، وكان القمر بدرا يتلألأ فى السماء. وفى هذه الليلة، ما شهدناه جميعا ونأبى أن نقبله؛ حدث رغم ذلك: دمرت "أكبار".

وعند رحيل الجيش الأشورى كان أفضل رجالنا قد ماتوا.

أما الذين فروا فقد رأوا أنه من العبث البقاء هنا، وقرروا الرحيل.

وبقى العجائز والأرامل والأيتام.. بلا نفع. انظروا حولكم. الميدان أجمل مما كان، والبنابات أكثر صلاحية، والطعام يقسم، وكل فرد يتعلم الكتابة البابلية. وفى مكان ما فى هذه المدينة ثمة مجموعة من الألواح سجلنا عليها حكاياتنا، وهكذا ستذكر الأجيال القادمة ما قمنا به. واليوم نعرف أن العجائز والأرامل والأيتام رحلوا، وتركوا مكانهم مجموعة شباب من كل الأعمار، ممثلين بالحماس، أعطوا أسما ومعنى لحياتهم.

وفى كل لحظة من إعادة البناء كنا نعرف أن
الأشوريين سيعودون، وأننا سنضطر ذات يوم إلى تسليم
المدينة لهم، ومعها نسلم مجهودنا وعرقنا وبهجتنا عندما نراها
أجمل من ذى قبل.

أضاءت النيران الموع التى تحدت على وجوه
البعض. حتى الأطفال الذين اعتادوا اللعب خلال الاجتماعات
المسائية ، كانوا ينصتون يشغف إلى كلماته . أكمل "إيليا" : كل
هذا لا يهم. لقد قمنا بواجبنا تجاه الله لأننا قبلنا تحديه، وشرف
التصارع معه. فقبل هذه الليلة حاول أن يحفزنا وقال لنا:
سيروا! لكننا لم نهتم به . لماذا؟ لأن كلا منا كان قد قرر ما
سيكون عليه مستقبله.

كنت أفكر فى إزاحة إيزابيل عن العرش، والمرأة التى
تدعى الآن (إعادة المواجهة) أرادت أن يصبح ابنها بحارا ،
والرجل الذى يحمل اليوم (الحكمة) اسما، كانت كل رغبته أن
يقضى بقية حياته يشرب الخمر فى الساحة.
اعتدنا الأسطورة المقدسة للحياة ولم نمنحها سوى
أهمية ضئيلة.

عندئذ قال الرب : "لن يسيروا ؟ إذن ليكونوا عاطلين
بلا فائدة زما طويلا".

فقط حينئذ فهمنا رسالته. بعد أن أطاحت أسلحة
الأشوريين بشبابنا، وأطاح الجبن برجالنا اللناضجين الذين ما
زلوا عاطلين -- أينما كانوا -- لأنهم تقبلوا لعنة الرب.

أما نحن فتصارعنا مع الله. تماما مثلما نتصارع مع الرجال والنساء الذين نحبهم فى حياتنا. وهذا الصراع مع المقدس هو ما يمنحنا البركة ويجعلنا ننضج .

لقد تشبثنا بالفرصة التى لاحت لنا فى المأساة، وقمنا بواجبنا تجاهه، بإثباتنا أننا نستطيع إطاعة أمره بالسير، فى أسوأ الظروف واصلنا التقدم.

ثمة لحظات يطلب فيها الرب أن يطاع، بينما فى لحظات أخرى يرغب فى اختبار إرادتنا، فيتحدانا لفهم حبه. وعرفنا هذه الإرادة عندما دكت جدران "أكبار"، لأنها فتحت آفاقنا وسمحت لكل منا بأن يرى قدراته . وهكذا توقفنا عن التفكير فى الحياة، واخترنا أن نعيشها .. والنتيجة كانت حسنة.

رأى "إيليا" أن عيون الناس تلمع من جديد. لقد فهموا. فأكمل : غدا سوف أسلم "أكبار" بلا معركة، وحينئذ أكون حرا، وأرحل عندما أريد، لأننى أدبت ما توقعه الله منى. ولأن دمي وعرقى وعشقى الوحيد؛ مختلطة بأرض هذه المدينة، قررت البقاء هنا بقية عمري، لأمنع تدمير المدينة ثانية.

ولكم أن تقررُوا ما تشاءون ، لكن لا تتسوا شيئا واحدا: أنتم جميعا أفضل مما تعتقدون. فاغتموا الفرصة التى منحتها المأساة لكم. ليس باستطاعة الجميع أن يفعلوا ذلك. ونهض "إيليا" منهيًا اللقاء. وقال للصبي إنه سيعود متأخرا، ولذا يجب أن يأوى للفرش دون انتظار عودته.

• • •

ذهب "إيليا" إلى المعبد، المكان الوحيد الذى نجا من
التمهير ولهذا لم تكن ثمة حاجة لإعادة بنائه ، وذلك رغم أن
الأشوريين أخذوا معهم تماثيل الآلهة.

بكل احترام لمس الحجر الذى، حسب التقاليد، يشير
إلى البقعة التى غرس فيها أحد الأسلاف عصا ولم يستطع أن
ينزعها ثانية.

وفكر كيف أن إيزابيل قد شيدت أماكن مثل هذه فى
وطنه، وبعض شعبه ينحنى أمام بعل وأربابه.

مرة ثانية انتابه الشك وامتلئ روحه، بأن الحرب بين
إله إسرائيل وآلهة الفينيقي ستستمر فترة طويلة تفوق قدرته على
التخيل.

وكما جاء فى رؤيته، رأى النجوم تعبر الشمس
ممطرة الموت والدمار على كلا البلدين. كان الرجال الذين
يتحدثون لغات غريبة يركبون حيوانات من حديد ويتبارزون
وسط السحب.

سمع ملاكه يقول : لا يجب أن ترى هذا الآن، لأن
الوقت لم يحن.

إذهب وانظر من النافذة.

فعل "إيليا" ما أمر به . وفى الخارج كان القمر بدرا
ضى شوارع ومنازل "أكبار" ، ورغم تأخر الوقت سمع
حوارات ومضحكات بين سكان المدينة.

فحتى وهم فى انتظار عودة الأشوريين، احتفظ الناس
بإرادة الحياة، وكانوا متأهبين لمواجهة مرحلة جديدة فى
حياتهم.

راى طيفا وادرك انه للمرأة التى احبها ، وقد عادت
الان لتسير بفخر فى مدينتها. ابتسم لشعوره بانها تلمس وجهه.
بدت كما لو كانت تقول: انا فخورة ، فما زالت "اكبار" جميلة
بحق.

شعر برغبة ملحة فى البكاء، عندئذ تذكر الصبى الذى
لم يذرف دمعة لموت امه. كبح تنهداته وفكر مجددا فى أجمل
أجزاء الحكاية التى عاشها معا منذ اللقاء عند أبواب المدينة،
حتى اللحظة التى كتبت فيها كلمة (حب) على لوح من الطين.
وثانية أصبح يستطيع أن يرى ملابسها مقعدها وأنفها الدقيق.
قال: أخبرتني أنك اكبار. وها انا قد اعتنيت بك،
شفيت جروحك ، والآن أعينك للحياة. فحسى أن تكونى سعيدة
بين رفاقك الجدد.
وارغب أن أخبرك شيئا ما: انا أيضا كنت "اكبار"،
ولم أدر.

.. أدرك أنها تبتسم له.

ومنذ زمن بعيد محت رياح الصحراء آثار خطونا
على الرمال. ورغم ذلك فى كل لحظة من وجودى أذكر ما
حدث، وأشعر بك تهيمين فى أحلامى وواقعى. أشرك لأئك
عبرت فى طريقي.

ونام "إيليا" هناك فى المعبد، شاعرا بأصابع المرأة
تداعب شعره.

رأى قائد القافلة جماعة من الناس غاضبة ، ثقف فى منتصف الطريق . وظننا منه أنهم لصووص، أمر القافلة بالتأهب للقتال.

سألهم: من أنتم؟

أجاب رجل له لحية وعينان تبرقان: نحن شعب "أكبار".

ولاحظ قائد القافلة أن الرجل يتحدث بلكنة أجنبية ، وقال له: "أكبار" دمرت . ونحن مكلفون من حكومتى صيدا وتأير" بالبحث عن بئر حتى تتمكن القوافل من عبور الوادى ثانية. فالإتصال مع بقية المدن لا يمكن أن يظل مقطوعا للأبد. قال الرجل ذو اللحية : "أكبار" ما زالت موجودة. لكن أين الأشوريون؟

قال قائد القافلة ضاحكا: العالم بأسره يعرف أين هم الآن. إنهم يجعلون الأرض أكثر خصوبة . وقد تغذت على أجسادهم الطيور والحيوانات الضارية منذ فترة طويلة.

قال الرجل: لكنهم كانوا جيشا قويا.
قال قائد القافلة: لا أهمية لقوة أو لجيش، إذا ما اكتشفنا
المكان الذى سيهاجمونه . و"أكبار" أرسلت تحذيرا باقترابهم،
وهكذا أعدت "صيда وتاير" كمينا لهم عند نهاية الودى. ومن لم
يموتوا فى المعركة، باعهم بحارتنا كعبيد.
ابتهج أهل "أكبار" وتبادلوا الأحضان، وهم يبكون
ويضحكون فى ذات الوقت. قال للتاجر بإصرار: من أنتم أيها
الناس؟ وأشار إلى قائد الجماعة ذى اللحية وقال: ومن أنت؟
وكان الرد: نحن محاربو "أكبار" الشباب.

• • •

بدأ موسم الحصاد الثالث، وقد أصبح "إيليا" حاكم
"أكبار".

وواجهته مقاومة هائلة فى البداية ، خاصة وأن الحاكم
السابق حاول العودة واستعادة موقعه ثانية، حسب ما تمليه عليه
العادات والتقاليد.

ورغم ذلك رفضه سكان المدينة، وهددوا طوال أيام
بتسميم مياه البئر.

وفى النهاية استجابت السلطات الفينيقية لمطالبهم ، فلا
غنى عن المياه التى تقدمها "أكبار" للمسافرين، خاصة وأن
حكومة إسرائيل كانت تحت سيطرة أميرة "تاير".

وبإعطاء موقع الحاكم الإسرائيلى، بدأ القادة الفينيقيون
يسعون إلى تعزيز تحالف تجارى أكثر قوة.

وانتشرت الأخبار فى المنطقة، عن طريق قوافل التجارة التى عادت لرحلاتها من جديد.

وفى إسرائيل قلة هى التى اعتبرت "إيليا" أسوأ الخونة، ورغم ذلك فعند اللحظة المناسبة ستتخلص إيزابيل من هذه المقاومة ليعم السلام المنطقة. وكانت الأميرة راضية لأن ألد أعدائها أصبح فى النهاية أعظم حلفائها.

* * *

سرت شائعات عن عودة الأنشوريين من جديد، وشيدت كل الجدران المحيطة بأكبار. وأنشئ نظام دفاع جديد، مع وجود حراس ومستكشفين ينتشرون بين (تاير) و"أكبار". وهكذا فعند محاصرة أحد المدن يصبح فى استطاعة المدن الأخرى أن ترسل القوات برا، وتضمن وصول الطعام بحرا.

وكان الرخاء قد عم "أكبار" بشكل غير مسبوق، فالحاكم الإسرائيلى ابتدع نظاما صارما أساسه الكتابة، لتنظيم الضرائب والتجارة. والتزم مكان "أكبار" بهذا النظام مستخدمين أساليب جديدة للمتابعة، وكذلك عملوا بصبر على حل المشكلات التى طرأت.

النساء قسمن وقتهن بين رعاية المزروعات وأعمال النسيج.

فطوال فترة العزلة حاولوا الاستفادة بالقليل من الملابس التى تبقت، وابتكروا نماذج جديدة من الزخرفة والتطريز. وعند عودة التجار إلى المدينة فتنتهم التصميمات، وطلبوا كميات كبيرة منها.

كذلك تعلم الأطفال الكتابة البابلية، وكان "إيليا" على
يقين من أن هذا سوف يساعدهم ذات يوم.
وكما اعتاد دائما قبل الحصاد، تجول في الحقول وقت
الظهيرة، يسبح بحمد الله على هباته التي لا تحصى والتي
وهبها له طوال هذه السنين.
وشاهد الناس يحملون سلالا ممتلئة بالحبوب، وحولهم
الأطفال يمرحون . لوح لهم، وردوا عليه تحيته.
مبتسما سار نحو الحجر حيث منذ زمن بعيد، قدم له
لوح من الطين مكتوب عليه كلمة (حب). كانت هذه عادته.
يزور هذه البقعة كل يوم ليتابع غروب الشمس ويستدعي كل
لحظة قضياها معا.

وبعد أيام كثيرة، كان كلام الرب إلى "إيليا" فى السنة
الثالثة، قائلا : اذهب وتراء لأخاب فأعطى مطرا على وجه
الأرض.

من فوق الصخرة حيث جلس، رأى "إيليا" يرتعد أمام عينيّه.

أظلمت السماء للحظة ، لكن سرعان ما أشرقت الشمس من جديد.

ورأى "إيليا" نورا، وكان ملاك الرب أمامه.

سأله "إيليا" : ماذا حدث؟ هل سامح الرب إسرائيل؟

قال الملاك : لا. إنه يريدك أن تعود لتتحرر الناس.

صراعك معه انتهى. هو يباركك من هذه اللحظة. ولقد تركك ترحل، لتكمل عمله في هذه الأرض.

أصيب "إيليا" بالدهشة، وقال : الآن - عندما وجد قلبي

السلام والطمأنينة ثانية؟!

قال الملاك: تذكر الدرس الذي علمه لك الرب ذات

مرة. وتذكر الكلمات التي قالها الرب لموسى: "وتتذكر كل

الطريق التي فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في

التفر لى بذلك ويجربك ليعرف ما فى قلبك أتحفظ وصاياہ أم
لا".

"لألا إذا أكلت وشبعت وبنيت بيوتا جيدة وسكنت
وكثرت بقرک وغنمک وكثرت لك القضة والذهب. وكثر كل
مالك يرتفع قلبك وتنسى الرب إلهك".

استدار "إيليا" للملاك ، وسأله: ماذا عن "أكبار"؟

أجابه الملاك: ستبقى يدونك ، لأنك تركت عليها وريثا
ستبقى لسنوات طويلة. واختفى ملاك الرب.

وصل "إيليا" والصبي إلى سفح الجبل الخامس. وكانت
الأعشاب قد نمت بين صخور المذبح، فمنذ موت كبير الكهنة
لم يصعد أحد إلى هناك .

قال "إيليا": لننسلقه.

قال الصبي: محرم هذا.

قال "إيليا": نعم، لكن هذا لا يعنى أنه خطير.

وأمسكه من يديه، وتسلقا باتجاه القمة. ومن حين لأخر
كانوا يتوقفون للنظر إلى الوادى بأسفل. كان انقطاع المطر قد
ترك آثاره على المدينة وما يحيط بها. وباستثناء الحقول
المزروعة حول "أكبار"، بدا كل شئ قاحلا مثل صحراء مصر.
قال الصبي: سمعت أصدقائى يقولون إن الأشوريين
سيعودون ثانية.

قال "إيليا": ربما . لكن ما فعلناه جدير بالثناء، لقد
كانت الطريقة التى اختارها الرب ليعلمنا.

قال الصبى: لا أعرف، فمهما كان غضبه منا، لا
يجب أن يكون بهذه القسوة.
قال "إيليا": لابد أن أجرب وسائل أخرى قبل أن
يكتشف أننا لا ننصت له.

لقد اعتدنا حياتنا، ولم نعد نقرأ كلماته.
سأله الصبى: أين نكتب هذه الكلمات؟
قال "إيليا": فى العالم من حولنا. فقط كن حساسا تجاه
ما يحدث فى حياتك، وسوف تكتشف مكانها فى كل لحظة من
اليوم، فهى يخفى كلماته ومشيبته. فاسع للقيام بما يطلبه منك،
فهذا وحده هو الدافع وراء وجودك فى العالم.
قال الصبى: إذا اكتشفتها، سوف أحفظها على السواح
الطين.

قال "إيليا": لتفعل . لكن احفظها أولا فى قلبك، فهناك
أن تحرق أو تدمر. وسوف تحملها معك أينما ذهبت.
وسارا لبعض الوقت، حتى أصبحت السحب شديدة
القرب منهم.
أشار الصبى إلى السحب وقال: لا أريد الصعود إلى
هناك.

قال "إيليا": لن تؤذيك ، فهى مجرد سحب. تعال معى.
وأمسك يده وتسلقا. شيئا فشيئا وجدا نفسيهما داخل ضباب
كثيف. التصق به الصبى، ورغم محاولات "إيليا" للحديث معه
من حين لآخر، لم ينطق الصبى بكلمة . وسارا بين الصخور
العارية لقمة الجبل.

قال الصبى متوسلا: لنعد.

قرر "إيليا" ألا يضغط على الصبى، يكفيه ما واجهه من صعوبات ضخمة وهلع خلال الفترة القصيرة الماضية من حياته . واستجاب للصبى وهبطا بين الضباب، وأصبح باستطاعتها تمييز الوادى أسفلهما.

قال "إيليا": يوما ما، ابحت فى مكتبة "أكبار" عما كتبته لك. كتاب عنوانه (تدريبات محارب النور).

تساءل الصبى: هل أنا (محارب النور)؟

سأله "إيليا" : ما هو اسمى؟

قال الصبى: الحرية.

قال "إيليا" : اجلس هنا جوارى ، وأشار إلى حجر، ثم أكمل: لا أستطيع أن أنسى اسمى. ولا بد أن أكمل مهمتى، حتى ولو كان بقاءى إلى جوارك هو كل ما أتمناه فى هذه اللحظة. وهذا هو سبب إعادة بناء "أكبار"، لتعلمنا ضرورة المضى قدما، رغم الصعوبة التى قد تبدو على ذلك.

قال الصبى: سترحل.

سأله "إيليا" باندھاش: كيف عرفت؟

قال الصبى: كتبت ذلك على لوح ليلة أمس، بعد أن أخبرنى به شئ ما، ربما يكون أمى أو ملاكا ، لا أعرف. كل ما هنالك أننى شعرت به فى قلبى.

مسح "إيليا" رأس الصبى وقال - برضا : لقد تعلمت قراءة مشيئة الرب.

ولم تعد تحتاج من يفسر أى شئ لك.

قال الصبى : كل ما قرأته هو الحزن فى عينيك. لم يكن صعبا، لاحظته أصدقاء آخرون.

قال "إيليا": هذا الحزن الذى قرأته فى عيني جزء من حكايتى. مجرد جزء صغير سيستمر لأيام معدودة. وغدا عندما أرحل إلى أورشليم ، لن تكون له نفس القوة السابقة، وسيختفى شيئا فشيئا. الحزن لا يدوم إلى الأبد، خاصة عندما نسير فى الاتجاه الذى طالما رغبناه.

سأله الصبى: هل رحيلك أمر لا مفر منه؟

أجابه "إيليا" : من الضروري معرفة أنه عند انتهاء مرحلة فى حياة المرء، فإن التثبيت بها بعد انتهاء الحاجة إليها، سيقطع ما تبقى من الحياة البهجة والمعنى، وسيعرض الحواس إلى خطر التشوش من قبل الرب.

قال الصبى: الرب قاس.

قال "إيليا" : فقط مع الذين يختارهم.

• • •

تأمل "إيليا" المدينة فى الأسفل وقال: نعم، أحيانا يكون الرب شديد القسوة، ولكن لا تتجاوز قسوته قدرة المرء على الاحتمال. ولم يكن الصبى يدرى أنهما يجلسان حيث استقبل "إيليا" ملاك الرب وتعلم منه كيف يعيد الصبى للحياة.

سأله "إيليا" : هل ستقتدنى ؟

قال الصبى: أخبرتنى أن الحزن يتلاشى عندما نمضى قدما. وما زال هناك الكثير حتى تصل "أكبار" إلى الجمال الذى تستحقه أمى. فهى تتجول فى طرقاتها.

قال "إيليا": لتعد إلى هذا المكان كلما احتجتنى .
ولتتظر ناحية أورشليم. سأكون هناك، أسعى لمنح اسمى معنى
"الحرية". ولا تنس أن قلوبنا مرتبطة ببعضها إلى الأبد.

سأله الصبى: لهذا السبب جئت بى إلى قمة الجبل
الخامس؟ لأرى إسرائيل!

قال إيليا: ولترى الوادى، المدينة، بقية الجبال،
والصخور والسحب.

ودائما كان الأنبياء يصعدون ليتحاوروا مع الرب.
ودائما كنت أتساءل لماذا يفرض ذلك؟ والآن عرفت الإجابة.
فعندما نكون فوق مرتفع نستطيع رؤية كل شئ دوننا صغيرا،
وعندئذ يفقد زهونا وحزننا أهميتهما .

حتى لو تم احتلالنا أو تضليلنا، سيبقى هذا فى الأسفل
هناك. من فوق قمم الجبال ترى كم العالم كبير، وكم هى
واسعة آفاقه.

نظر الصبى حوله. فمن فوق قمة الجبل الخامس
يستطيع أن يشم رائحة البحر الذى يغمر شيطان تايير. ويستطيع
سماع الرياح الصحراوية القادمة من مصر.

قال الصبى لـ "إيليا": يوما ما سأحكم "أكبار". وأدرك
كم هى مسئولية ضخمة، لكننى أعرف كل زاوية فى المدينة،
وأعرف ما يجب تعبيره.

قال "إيليا": إذن غيره. لا تترك الأشياء على مثاليتهما.
قال الصبى: ألم يكن فى استطاعة الرب أن يختار
طريقة أفضل ليكشف لنا كل هذا ؟ لقد مضى وقت طويل، وأنا
اعتقد أنه شريع.

لم ينطق "إيليا". فقط تذكر حوارا حدث منذ سنوات بعيدة مع "اللاوى".

بينما كان الاثنان ينتظران الموت بايدي جنود إيزابيل.
سأله الصبي بإصرار: هل الرب شرير؟
أجابته "إيليا": الرب هو كل القوة. باستطاعته فعل أى شئ، ولا شئ محرم عليه، لأنه فى هذه الحالة لا بد من وجود شخص آخر أكثر قوة منه ليمنعه من القيام بأشياء محددة. وبالطبع سأفضل عبادة الرب الأقوى.
صمت "إيليا" لحظات، ليسمح للصبي أن يستوعب كلماته. وبعد ذلك أكمل: وهكذا، فبسبب قوته المطلقة ، فإنه يختار أن يفعل الخير.

وعندما نصل إلى نهاية حكايتنا سنتبين أنه فى كثير من الأحيان يتخفى الخير فى الشر، ورغم ذلك يظل خيرا، ويظل جزءا من مشيئته وتدييره للإنسانية.
أمسك يد الصبي ، وهبطا الجبل فى صمت.

فى هذه الليلة، نام الصبي بين ذراعى "إيليا" ، وبمجرد بزوغ الفجر أبعده "إيليا" - بحرص - الصبي عن حضنه حتى لا يوقظه. وسرعان ما ارتدى الثوب الوحيد الذى يمتلكه، ورحل.
وفى الطريق ، التقط قطعة خشب من الأرض واستخدمها كعصاة، وقرر ألا يسير بدونها أبدا، لأنها ما ينكره بصراعه مع الرب ويتمير وإعادة بناء "أكبار".
ودون أن ينظر خلفه ، استمر فى طريقه باتجاه إسرائيل.

بعد خمس سنوات، عاود الآشوريين غزو المدينة،
وفى هذه المرة كان الجيش أكثر احترافاً، وقادته أكثر حنكة
وكفاءة.

وسقطت كل المدن الفينيقية تحت سيطرة الغزاة، ما
عدا "تاير" و"صرفة" التي يدعى سكانها بـ "الأكبار".
وأصبح الصبى رجلاً يحكم المدينة، واعتبره
معاصروه بمثابة حكيم راجح العقل . ومات بعد عمر طويل
وهو محاط بالأعوان والأحياب، وكان يقول دائماً: "لابد أن
نحفظ المدينة جميلة وقوية، لأجل أُمى التى ما زالت تجوب
الشوارع".

وبفضل نظام الدفاع المشترك بين "تاير" و"صرفة" لم
يحتلها الملك الآشورى (سينخرىب) حتى عام (٧٠١ ق.م) ،
قراءة ١٦٠ سنة بعد الأحداث التى احتواها هذا الكتاب.
وبداية من هذا الوقت لم تستعد المدن الفينيقية أهميتها
ومكانتها، وبدأت تتعرض لسلسلة من الغزوات ، بواسطة:

البابليين الجدد، والفرس، والمقدونيين، والسلووبيين، وأخيرا
الرومان.

ورغم ذلك ما زالت هذه المدن موجودة حتى وقتنا
الحالي، لأنه حسب التقاليد القديمة؛ لم يختر الرب بشكل
عشوائي الأماكن التي يرغب أن يراها معمورة. تاير، صيدا،
بابل .. ما زالت جزءا من لبنان الذي ما زال - حتى - الآن
- ميدانا للمعارك.

عاد "إيليا" إلى إسرائيل، واستدعى الأنبياء جميعا إلى
 جبل الكرمل، وهناك طلب منهم أن ينقسموا إلى مجموعتين.
 هؤلاء الذين عبدوا بعل، والذين آمنوا بالله.
 واتبع تعليمات الملاك، فقدم ثورا للمجموعة الأولى
 وطلب منهم أن يتضرعوا إلى السموات لتقبله آلهتهم .
 ويقول الكتاب المقدس:

(وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عال
 لأنه إله. لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم
 فينتبه.

فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم
 بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم. ولما جاز الظهر
 وتبأوا إلى حين إصعاد النقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا
 مصغ).

عندئذ أخذ "إيليا" حيوانه وقدمه إلى الرب، متبعا
 تعليمات الملاك.

وفى هذه اللحظة سقطت النار من السماء "وأكلت
المحرقة والحطب والحجارة". ومنذ هذه اللحظة اشتعلت الحرب
الأيهية.

وأمر "إيليا" بإعدام كل الأنبياء الذين خانوا الرب،
وبحثت إيزابيل عنه فى كل مكان لتقتله . وفر "إيليا" إلى
الجانب الشرقى من الجبل الخامس - الذى يواجه إسرائيل.
غزا السوريون المدينة وقتلوا الملك (الخاب)، زوج
أميرة تاير، بسهم انطلق بطريق الخطأ ودخل عبر فتحة فى
درعه الواقى.

لجأت إيزابيل إلى قصرها، وبعد عدة ثورات شعبية ،
وصعود حكومات وسقوطها، توجهوا للقبض عليها، لكنها
فضلت أن تقفز من النافذة، على أن تسلم نفسها للرجال الذين
أرسلوا للقبض عليها.

وظل "إيليا" على الجبل حتى آخر أيامه.

ويقول الكتاب المقدس : إنه ذات ظهيرة ، عندما كان
إيليا يتحدث إلى (إلياشع) - النبى الذى اشتق اسمه من اسم
"إيليا" ، عندئذ ظهرت عربة من نار، وخيول من نار، وباعدت
بينهما، ورفع "إيليا" بواسطة ريح كالإعصار إلى السماء.
وبعد قرابة ثمانية قرون، أمر يسوع كلا من بطرس
وجيمس ويوحنا، بتسلك الجبل.

وينسب الإنجيل - كما دونه (متى) - إلى يسوع:

"وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه".

وطلب يسوع من الحواريين ألا يتحدثوا عن هذه الرؤية حتى يقوم ابن الإنسان من بين الأموات ، لكنهم أجابوا بأن ذلك سيحدث فقط عندما يعود "إيليا".

ويحكى إنجيل (متى) - الأصحاح ١٧ - من الآية (١٠ إلى ١٣) بقية الحكاية:

"وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولا.

فأجاب يسوع وقال لهم إن "إيليا" يأتي أولا ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم إن "إيليا" قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا . كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان".

وحبلت مريم بلا خطيئة، فصلى لأجلنا نحن الذين
نتوسل إليك، أمين.

* **پاولو كويلهو**: كاتب برازيلي ولد عام (١٩٤٧) فى ريو دى

جانيرو

وهو يعتبر بمثابة ظاهرة أدبية، فهو من أكثر الكتاب شعبية فى العالم. وبلغت مبيعات كتبه حوالى (١٥) مليون نسخة فى شتى أنحاء العالم . وترجمت كتبه إلى (٣٤) لغة.

تسلم جوائز أدبية عديدة من بلدان كثيرة.

وأصبحت كتبه ضيفا دائما على قوائم أفضل مبيعات

فى: البرازيل - بريطانيا - أمريكا - فرنسا - إيطاليا - ألمانيا - اليونان.

رواية "الجبل الخامس":

- هذه الرواية تعتبر إعادة حكي فذة لحكاية (إيليا) النبى الصغير الذى أجبر على الفرار من بيتسه ووطنه ليواجه سلسلة لا منتهية من المحن. وأخيرا وجد الملاذ والحب، فقط لتتحطم أحلامه مرة أخرى، ونتيجة لذلك لم يفقد فقط حبه الأرضى المادى ، بل اهتز إيمانه بشدة وبدأ يشك فى وجود الرب.

- حول (كويلهو) محن (إيليا) إلى قصة مشوقة وملهمة، باستحضارها الرائع للأفكار الكونية الرئيسية عن انتصار الإيمان والحب على المعاناة.

- فى هذه الرواية يأخذنا (كويلهو) إلى القرن التاسع، إلى الشرق الأوسط المضطرب حيث يصارع النبى (إيليا) ليحفظ إيمانه حيا فى عالم من الثورة الدائمة والطغيان الملكى والأرباب الوثنية.

"الجبيل الخامس"

- صدرت عام ١٩٩٨.
- عن (هاربر كوليز) فى نيويورك، وفى بريطانيا.
- ترجم الرواية من البرتغالية إلى الإنجليزية "كليفورد إى. لاندروز".
- أعمال أخرى لـ (باولو كويلهو): الخيميائى، الحج، بجوار نهر بيدرا جلست أبكى.

- تعليقات حول الرواية

- ١- (كورير دى لاسيرا) إيطاليا:
يقدم "كويلهو" أسطورة القصص الحكيم.
- ٢- (لوفيجارو) . فرنسا:
كتابته مثل طريق من الطاقة يقود القراء لملاقاة أنفسهم، ليتجهوا بعد ذلك نحو أرواحهم البعيدة والغامضة.
- ٣- الإسبكتادور:
ينتشر سحره، وبعد قراءة كتبه يشعر المرء بالسعادة.

هذه الرواية

هي الرواية الثانية التي تترجم إلى العربية للكاتب البرازيلي الظاهرة باولو كويلهو . بعد روايته الأولى (الخيميائي - ساحر الصحراء) التي ترجمها الكاتب الكبير بهاء طاهر . وهي الرواية التي جعلت من « باولو كويلهو » واحداً من أكثر الكتاب العالميين شهرة وشعبية . إذ ترجمت إلى ٢٤ لغة .. وفي « الجيل الخامس » كما هي غيرها من روايات « باولو كويلهو » يحاول الكاتب العودة بنفسه وبقاركه إلى الحقيقة الموصلة لأسطورتنا الشخصية . فهو يختار من قصص الكتاب المقدس قصة النبي الصغير « إيليا » ليسرد من خلالها بطريقته المشوقة والرائعة دراما الصراع الأبدى بين الإيمان والحب وبين المعاناة والألم وقد اختار منطقة الشرق الأدنى القديم التي كانت مهداً وحاضنة للحضار والديانات لتجرى فيها أحداث الرواية التي تدور في عصور ما قبل الميلاد ..

« الجيل الخامس » ككل الأعمال الأدبية الكبيرة التي تمتعت بتعدد على المستوى الميتافيزيقي التاريخي والإنساني المعاصر تلك المنطقة ما زالت حية ومستمرة .. لكن التأويلات الرواية في تصويرها المشوق لمعاناة الإنسان من أجل ..

الجيل الخامس

